تفسير سورة النجم

هى مكية

إلا آية : الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى : فمدنية

آياتها ٦٢ — نزلت بعد الاخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۞ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۞ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۞ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۞ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۞ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۞ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۞ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۞ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۞ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۞ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۞ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۞ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۞ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۞ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۞ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۞ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۞ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۞ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۞ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ ۞ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۞ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ ۞ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ۞ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ۞ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ۞ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَىٰ ۞ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۞ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ۞ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ ۞ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا

اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ۞ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ۞ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ۞ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ۞ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ۞ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ۞ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ۞ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ۞ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ۞ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ۞ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ۞ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ۞ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۞ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ۞ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ۞ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى ۞ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ۞ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ۞ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ۞ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى ۞ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ۞ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ۞ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ۞ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى ۞ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ۞ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ۞ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۞ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۞ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۞

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأوّل فى تفسير البسملة .

القسم الثانى فى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوحى إليه ، وفى قربه من ربه ، من أوّل السورة إلى قوله : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى »

القسم الثالث : تقريع المشركين على جهلهم وكفرهم بعبادة الأصنام ، ونسبتهم البنات إلى الله ، وأخذهم بالظن وبخلهم ، وفى حكم عامية ، وفى صفات لله علية .

القسم الأول فى تفسير البسملة

إيضاح الرحمة فى البسملة فى [سورة الرحمن] وبيان أن الرحمة قد اكتنفت البسملة ، فان فى آخر السورة قبلها رحمة كصلاة الليل ، وفى أوّل السورة بعدها إفاضة علمهم على الناس

آخر سورة الطور وأوّل سورة النجم

خواطرى فى صلاة الصبح يوم الخميس ٢٧ أغسطس سنة ١٩٣١

كتب هذا فى يوم الجمعة ٢٨ أغسطس سنة ١٩٣١ م

كنت أقرأ فى الركعة الثانية من صلاة الصبح أوّل سورة النجم ، فخطر لى فى الصلاة وبعدها ما يأتى :

إن سورة الطور مختومة بقوله تعالى : « واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » إن آخر سورة الطور متصل بأول سورة النجم كأن الله يقول : أيها الناس قوموا الليل إلا قليلا ، تهجدوا فى آخر الليل ، وسبحوا واحمدوا ، ثم أخذ يقسم بالنجم مذكرا المصلى بالنجوم التى تقارن صلاته آخر الليل ، أقسم بالنجم ليذكر المصلى والمسبح والنجوم فى ادبارها آخر الليل ان الصلاة والتسبيح العاريتين عن الفكر ضعيفتا الأثر ، قليلتا الحظى ، لاهما فى العير ولا فى النفير ، وهل يقسم الله إلا بما هو جليل وعظيم ! والجليل والعظيم والآيات الكبرى هى التى إليها تتجه الأنظار وبها تطمئن القلوب :

(١) أقسم الله بالنجم وقال فيه : « وانه لقسم لو تعلمون عظيم » لماذا هذا ؟ لأنه يعلم قبل أن ينزل القرآن لأهل الأرض أن أمما وأمما ستظهر بعد نزول القرآن ، وتدرس النجم ، وتفتح لها أبواب السماء والأرض ، وذلك بعلم النجوم ، ذلك العلم الذى به أمكن الناس السير فى المحيط الهادى والهندى والصينى والأطلسى والبحر الأبيض المتوسط وغيرها . ياسبحان الله : كيف يعرف الربان مكانه فى وسط البحار اللجية إلا بواسطة الآلة الفلكية التى لا اعتماد لها إلا على النجوم الثوابت والسيارات ، فاذا غفل ثانية طاح وصاع فى وسط اللجج ولات حين مناص .

(٢) أقسم الله بالنجم اذا هوى ، لأن النجم فى وسط السماء فى خط نصف النهار ، لا يعرف اتجاهه ، لكنه اذا هوى ومال إلى الغروب عرف اتجاهه فهدى السارين فى الصحراء ، أقسم بهذا النجم الموصوف بهذه الصفة أن محمدا ماضل وماغوى ، وكما أن النجم اذا هوى لا يصحبه فى هذه الحال ضلال ، هكذا محمد ﷺ لا يصحبه ضلال ، بل هاد للناس كما يهدى ذلك النجم الربان .

(٣) أقسم الله بالنجم لأنه يعلم أن أمما وأمما تبحث فى مقادير الكواكب وأعدادها ، وهذا من آيات الله العظيمة ليرشد المسلمين إلى تلك الآيات ، ان سير نور الكوكب ١٨٦ ألف ميل فى الثانية أو ٣٠٠ ألف كيلومتر ، وهكذا الأمواج التى لاسلك لها وكلاهما يجرى حول الأرض فى سبع ثانية مرة واحدة ، ويجرى حول الكون كله نحو مائة مليون سنة ، إذن نسبة محيط الكرة الأرضية إلى محيط ماعرف من الكون كنسبة سبع ثانية إلى مائة مليون سنة ، وأيضا ان الأرض اذا صغرت فصارت مقدار حجم الجوهر الفرد بلغ حجم الكون الذى عرفه الناس بأقوى التلسكوبات على هذه النسبة حجم الأرض مرة واحدة ، و بلغ حجم الكون كله على ماهو ممثل فى مذهب المسبية ألف مليون أرض منتشرة حولها فى الفضاء ، النظام الشمسى يشتمل على الشمس وتسعة سيارات تدور حول أكثرها أقمار ، وهذه الشمس وعالمها جزء من المجرة ، والمجرة فيها نجوم تبلغ ٣٠ ألف مليون نجم كلهن شموس كشمسنا أو أكبر أو أصغر ، ويقول الاستاذ [شابلى] أحد أساتذة علماء الفلك فى [هارفرد] انها مائة ألف مليون نجم ، وقطر المجرة الأطول ٢٢٠٫٠٠٠ سنة ضوئية أعنى أن الضوء الذى يسير فى الثانية ١٨٦ ألف ميل يقطع المجرة فى مائتى وعشرين ألف سنة بهذه السرعة ، وفى خارج هذه المجرة سدم لولبية أقربها إلينا يبعد عنا ٨٥٠٫٠٠٠ سنة نورية ، والسديم الواحد فيه مادة تكفى لتكوين ألفى مليون نجم ، ويقول الدكتور [هيل] ان تلسكوب مرصد جبل ولسن الذى قطر مرآته العاكسة ١٠٠ بوصة يستطيع الوصول إلى مليونين من هذه العوالم الجزرية يبعد أحدها عن الآخر نحو مليونى سنة ضوئية ، وأبعدها عنا يبعد ١٤٠ مليون سنة ضوئية ، والمنتظر أنه متى تم بناء التلسكوب الحديد الذى سوف يكون قطر مرآته ٢٠٠ بوصة تمكن الراصدون من الوصول إلى ١٦ مليون مجرة من هذه المجرات بدلا من مليونين ، ويقدرون

عمر الشمس بنحو خمسة ملايين مليون سنة ، وعمر الأرض بنحو ألفي مليون سنة ، وعمر الحياة عليها بنحو ٣٠ مليون سنة ، وعمر الانسان عليها بنحو ٣٠٠ ألف سنة ، إن شمسنا التي تزيد عن أرضنا ألف ألف مرّة وثلثمائة ألف مرة كوكب له توابع وسيارات ونيازك وذوات أذناب لاحدّ لها ، وهذا الكوكب وتوابعه واحد من ثلاثين ألف مليون شمس ، وهذه كلها تكون مجرّتنا ، وهذه المجرّة لها نظائر ، وهذه النظائر هي السدم اللولبية ، وكل سديم منها فيه شموس في دور التكوّن ، أو هو مادّة سيأتي عليها ذلك الدور الذي فيه تحوّل إلى شموس ، وقد وجدوا أن كل سديم فيه مادّة تكفي لتكوين ألف مليون شمس ، وفوق ذلك أن تلك المادّة لطيفة جدا ، إذ يبلغ حجم كل جزء من مليون جزء من الأوقية منها حجم جبل مثل جبل [الماترهورن] وعلوّه نحو ١٥ ألف قدم ، فنسبة كل من هذه السدم الى جبل [الماترهورن] كنسبة ألف مليون شمس كشمسنا إلى جزء من مليون جزء من الأوقية . هذه صورة سعة الكون وشموسه (ولقد أوردنا كلاما يقرب من هذا في سور كثيرة منها آخر سورة الكهف) . وقد قدّر الاستاذ [هبل] أن هذه السدم التي وصفناها تبلغ نحو مليوني سديم كلها منتشرة في الفضاء الذي يمكننا رؤيته بتلسكوب مرصد جبل ولسن ، وأن في الكون فضاء يفوق الفضاء الذي يرى بالتلسكوب ألف مليون ضعف ، فعدد السدم في الفضاء كله يبلغ نحو ألفي مليون مليون سديم ، فاذا كان في كل سديم منها ألف مليون نجم كان عدد النجوم التي في الفضاء المنظور وغير المنظور نحو (٢) على يمينها (٢٤) صفرا أي : ٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ — هذه هي الآراء التي وصل لها عقل الانسان الآن ، وأن النجوم التي أعظم أمرها الله هذا عددها وهذه مقاديرها ، وبهذا نفهم لماذا يقول : « وانه لقسم لو تعلمون عظيم » إذن الله ما أقسم بالنجوم إلا لعظم قدرها والله يقول اننا لانعلم قدرها إلا اذا علمنا ، فهذا هو العلم ، هذا هو العلم الذي به نعرف قيمة النجم ، فاذا لم يتعلم المسلمون هذه العلوم فانهم لايعرفون قيمة القسم بالنجم في أوّل هذه السورة ، وهذه من عجائب القرآن التي خبأها الله فيه لتبرز لأبناء المسلمين الذين يقرءون هذا التفسير في حياتنا وفيما بعدها ، ومن عجب أن آية : « وانه لقسم لو تعلمون عظيم » جاءت في سورة متأخرة عن سورة النجم وهي سورة الواقعة مشعرة بعظم هذا القسم ، ولله الحمد وله الشكر على العلم والفهم .

(٤) أقسم الله بالنجم على شرف الهداية المحمدية ليفتح لنا باب العرفان ، ولما فتح لي في الصلاة ذلك الباب ولجت منه ، فدخلت في دائرة المعارف ، فألفيت فيها تلاميذ مبتدئين ، وآخرين قد أتموا الدروس منتهين ، وفيها أساتذة معلمون مهذبون ، ولقد هالني الأمر إذ وجدت في هذه الدائرة كل ماجادت به الأمم المتحضرة في دوائر تعليمها ،

محاورة بيني وبين صديقي العالم الذي اعتاد مجالستي في هذا التفسير

فلما اطلع على ذلك صاحبي سكت واجما وقال نعم أحسنت في ذكر النجوم وعددها ومقاديرها العظيمة وأحسنت أيضا في ذكر القسم والابداع فيه ، وأن المسلم لن يعرف معنى هذا القسم ولا عظمته إلا بدراسة هذه العلوم حتى يعرف عظمة مبدع هذا الوجود ، هذا قول لامرية فيه وقد جمع الحسن كله ، فأما قولك انك وأنت في الصلاة قد دخلت في دائرة العرفان ، وأن تلك الدائرة حوت كل نظام علمي في الأمم المتحضرة ، فهذا من الأقوال التي اعتاد الناس أن يرسلوها سبهللا ، ولعمر الله ماهذه بعادتك ، إن من نعم الله على أمتنا الاسلامية أن الكتاب (بالتشديد) اليوم فيها يكتمون وأكثرهم يبرهن على ما يكتب رأنت منهم ، فكان الأجدر أن

تترك هذه الجملة الأخيرة وتحذفها من نظام هذا المقام . فقلت حياك الله أيها الأخ : لقد وقفت من الجملة على المبتدأ ولم تنتظر الخبر ، أو على الجملة ولم تصبر حتى ترى تفسيرها .

أيها الأخ : أما جعلت الذين فى دائرة العرفان ثلاثة أقسام : قسم منهم مبتدئ ، وقسم منهم قد انتهى فى التحصيل ، وقسم بعد اتمام التحصيل يعلم غيره . قال نعم . فقلت : ان المبتدئ فى التعلم الآن فى بلاد الاسلام يجب على القائمين بتعليمه أن يقرنوا العلم بالتطبيق سواء أكان ذلك فى العلوم الرياضية أم الطبيعية أم الخلقية والأدبية ، أم فى العبادة ، وأى أمة علمت تلاميذها الأخلاق بلا ممارستها ، أو الحساب بلا تطبيق ، أو النحو وما معه من علوم اللسان ، أو الدين بلا عمل ، فان هذا التعليم لا فائدة منه .

فعلى المسلمين فى الأزهر ، وفى المعاهد الدينية ، وجميع مدارس الاسلام فى الشرق والغرب أن يمرّنوا التلاميذ من أوّل درس فى كل علم ، وذلك التمرين يختلف باختلاف العلوم ، وفى الدين يكون بالعبادة كالصلاة وكالتهجد ليلا ، وكالصدقات ، وكالصيام الخ .

فلما سمع صاحبى ذلك ظهرت عليه هيئة الانفعال والغضب ، وقال : ما هذا الذى تقوله ؟ أين هذه الأقسام الثلاثة ؟ أنت انما وصفت قسما واحدا وهم التلاميذ ، ولكنك لم تسمعنى من الآية شيئا ، فأما هذه الآراء فانك تعرفها من المدارس ومن الكتب ، فأما الآية فما الذى فيها من هذا ؟ فقلت : إن الأقسام الثلاثة فى هذه الآيات فان فى آخر سورة الطور التسبيح والتحميد ، وبعبارة أخرى قيام الليل ، وهذا من أعظم العبادات والعبادة تمرين على الايمان ، لأن الاستاذ يقول للتلميذ « الله خالق كل شىء » فاذا لم يكرّر التلميذ هذه المعانى فى الصلوات وغيرها حرم التمرين ، ومن حرم التمرين على النظريات عاش جاهلا ، فمن نشر التعليم الدينى ولم يمرّن المؤمنين على تلك النظريات بالأعمال الصالحة فدينه ناقص لا ثمرة فيه والتمرين فى كل شىء بحسبه ، فأما فى معرفة الله فبالعبادات كالصلوات ، وأما فى الأخلاق فبالتعوّد عليها كالتعوّد على الصدق وعلى عدم اخلاف الوعد وعلى الاحسان ، ويبتدئ ذلك من أوّل الدراسة من أوّل سنى التمييز ، إذن آخر سورة الطور يشير إلى التمرين على المعارف الاسلامية ، وذلك التمرين ضرب له مثلا بالتسبيح والتحميد فى كل وقت وفى آخر الليل هذا هو القسم الأوّل وهو القسم الابتدائى ، فاذا أخذ التلميذ فى الترقى شيئا فشيئا فى المعارف وقد أتقن الدور الأوّل بالتمرّن على الطاعات فهو لا حرم يوما ما واصل إلى النهاية المشار إليها بقوله تعالى : « ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى » وأخذ يصف تلك السدرة بأنها غشيها ما غشيها ، فهل كان يغشاها فراش من ذهب ، أو يغشاها ملائكة كأنها الطيور ؟ أو غشيها نور الله ؟ ونبقها كقلال هجر ، وأوراقها كآذان الفيلة ، أو هى تحمل الحلى والحلل والثمار من جميع الألوان ، والورقة منها لو وضعت فى الأرض لأضاءت لأهل الأرض وهى شجرة طوبى .

نحن لسنا فى مقام أن الأحاديث حسنة أو صحيحة أو ضعيفة ، نحن فى مقام عام ، ان هذه الأوصاف كلها اعراب عن العجائب الإلهية ، فلتكن أنوار ، وليكن فراش من ذهب ، أو لتكن حلى وحلل ، كل هذا عند حكماء الاسلام جمال الله وجلاله ، ولم يذكر فى الأحاديث من جماله وجلاله إلا ما تحتمله عقولنا ، فهذه المناظر غاية ما تسمح به تخيلاتنا الضعيفة فنخرج من هذا المقام بنعمة عظيمة ، وحكمة قويمة ، وآيا مبينة ، ونعمة حديثة قديمة ، وهى أن المقام جمال وجلال وحكمة وبهاء ، وهذا كله ليس يدركه إلا الذين كان مبدؤهم العبادة كالمذكور فى آخر الطور ونهايتهم العلم بجمال الله وكماله . وهو المشار إليه بقوله تعالى : « وقل رب زدنى علما » فالنبى ﷺ فى كل وقت يريد علما ، فلتكن سدرة المنتهى عظيمة جدا يسير الراكب فى ظلها أو فى ظل فرع منها مائة عام أو أكثر ، ولتكن الأنوار محيطة بها ، وليكن الفراش من الذهب حولها

وليكن الجمال كل الجمال فيها ، فالمنتهون فى العلم لن يقفوا فى معارفهم عند حدّ ، لأن الوقوف عن الرقىّ عذاب للواقفين .

إن نهاية كل امرئ أن يزداد علما فى كل ساعة من الزمان كما ورد عن سيدنا علىّ كرّم الله وجهه : « اذا طلعت شمس يوم ولم أزدد فيه علما فلابورك لى فى ذلك اليوم » وهذا هوالحقّ الصراح ، إذن هنا مرتبتان : مرتبة المبتدئين ، وهى أن يتمرّنوا على الايمان والاسلام بالعبادات ، ومرتبة المنتهين فى العلم ، وهم الذين درسوا هذا الوجود وأدركوا حقائقه بقدر طاقتهم .

وأما الدرجة الثالثة فهم أولئك المنتهون فى العلم إذ أخذوا يفيضون على تلاميذهم وعلى الأمة مما امتلأت به صدورهم ، فهؤلاء يفيضون على الناس من العلم الذى أحرزوه بالجدّ ، وثبتوه بالطاعة ، فصارت العلوم عندهم ملكات أشبه بالعواطف فيلقونها على الناس بعد إلقاء الأنبياء العلم للناس بالوحى ، وللاشارة إلى هذه الدرجة جاء انه ماضلّ وماغوى ، وانه ماينطق عن الهوى

ومن عجب أن وصف النبىّ صلى الله عليه وسلم بأنه يوحى إليه وأنه ما ينطق عن الهوى إنما ذكر بعد القيام بالليل مباشرة فى السورة قبلها للاشارة إلى أن التمرين بالعبادة على قواعد الايمان هو الأسّ الذى يبنى عليه نهاية العلم أوّلا وافاضته على الناس ثانيا ، ولاجرم أن النبوّة كانت على هذا المهيع ، فانه صلى الله عليه وسلم كان يتعبد فى غارحراء ، ثم أفيضت عليه العلوم بالوحى وأفاضها على الناس ، فهاتان المرتبتان مؤخرتان عن العبادات ، وهى التمرين العملى على القواعد الدينية .

فلما سمع صاحبى ذلك قال : هذه الآراء جيلة وهى من جهة أخرى غريبة ، فاذا أفضت فيها بشرح يكمل تبيانها بضرب أمثال تكون المقالة قد أثمرت وآتت أكلها باذن ربها . فقلت اسمع ياصاح زادك الله هدى وآتاك تقواك : ماذا يفعل الناس فى تعليم النحو ؟ قال : يبتدئون بمعرفة الاسم والفعل والحرف ، ويركبون الجمل ، ويأتون بأقسام الأسماء والأفعال والحروف وماتفرّع منها ، ويبينون النصب والرفع والجرّ وهكذا . فقلت : والصرف ؟ فقال : يأتون بالمصادر ويشتقون منها الأفعال وأسماء الفاعلين والمفعولين وهكذا . فقلت : وعلم المعانى ؟ فقال : يأتون بالخبر والانشاء والمسند ، والمسند إليه ، وحذفهما وذكرهما وتوابعهما وقصرهما والفصل والوصل ، والايجاز والاطناب ، والمساواة ، وهكذا . فقلت : والبيان ؟ فقال يأتون بالتشبيه والمجاز والكناية وما أشبهها ، ويفصلون الكلام تفصيلا . فقلت : والبديع ؟ قال يأتون بالمحسنات اللفظية والمعنوية كالجناس وأنواعه والطباق والاستخدام وهكذا . فقلت : والحساب ؟ فقال : يجمعون ويطرحون ويقسمون ويضربون ، ويأتون بأبواب كثيرة مبنية على ذلك مثل الخطيطة الداخلية والخارجية ، وحساب الكسور ، وحساب اللوغارتم ، والقاعدة الثلاثية البسيطة والمركبة وهكذا . فقلت : والهندسة ؟ فقال يأتون فيها بالنقطة والخط المستقيم والمنحنى والسطوح والأجسام التعليمية والمربعات والمخمسات وهكذا ، والدوائر والكرات ، وسطوح الكرات ، والاسطوانة والمكعبات وهكذا ، والمخروط وماأشبه ذلك ، ويبنون بعض هذه على بعض فالخطوط تكون منها الزوايا ، ومن الزوايا المثلثات تكون المثلثات ، ومن المثلثات يكون من كل اثنين منها مربع ، وباردياد مثلث آخر يكون المخمس . وهكذا يقال فى مساحة محيط الدائرة ومساحة نفس الدائرة وسطح الكرة وحجم الكرة (انظر هذا المقام موضحا إيضاحا تاما فى سورة الروم عند قوله تعالى : « فطرت الله التى فطر الناس عليها » الخ) . فقلت : والطبيعة ؟ فقال : يأتون بأقسام الجسم من حيث انه صلب أوسائل أوغاز ويأخذون فى تقسيم هذه الأجسام كلها ، ويبحثون فى خواصها ، وهى قسمان : خواص عامّة لجميع الأجسام ، وخواص يختص بها أنواع من الأجسام ، فللجسم عامّة فى الأجسام ، وكذا عدم التداخل ، ومثل السرعة فى

الضوء ، وسرعة الصوت وهكذا ، و يبحثون فى الحرارة والضوء والصوت والكهرباء والمغناطيسية وهكذا ، فأما الكيمياء فانهم يبحثون فيها عن اتحاد الأجسام بحيث تصبح بعد تركيبها فاقدة خواصها الأصلية كما فى تركيب الماء من الاكسوجين والادروجين فان خواص الماء وكذا خواص الحيوان والانسان والنبات غير خواص العناصر التى تركبت منها . فقلت : بناء عليه يكون علم الطبيعة أقرب الى علم المعانى ، ألا ترى رعاك الله أن الماء اذا صار ثلجا أو صار بخارا فانه يكون أشبه بالمعنى الواحد يذكر بطرق مختلفة مرة بالايجاز ، والمساواة أخرى والاطناب آونة فالمساواة كحال الثلج ، لأنه يكون أكبر من حجم الماء ، والماء كالايجاز ، والغاز كالاطناب ، وهكذا نرى علم البيان يقرب من الكيمياء فله بها نوع من الشبه بسيط لأنا نخرج عن اللفظ الحقيقى ونتجوّز له بلفظ فهو أشبه بانقلاب العناصر إلى مركبات بخواص جديدة .

فقال صاحبى حسن ماتقول . فقلت : كيف أجبتنى حين سألتك عن هذه العلوم ؟ فقال : تلك الاجابة حضرت عندى لأنى مرنت على هذه العلوم . فقلت حسن جدّا ، وهناك علم آخر يعوزه التمرين مثل هذه العلوم ، فاذا كان النحوى وعالم الحساب والهندسة لايحسن أحدهم إفاضة هذه العلوم على الناس إلا اذا ثبتت تلك العلوم فى نفسه بسبب التمرين وقتا بعد وقت فيركب جملا معربة أو مبنية و يصرف المشتقات و يأتى بعمليات الحساب و يحلها و يحل مسائل الهندسة والطبيعة ، و يدخل المعمل بالمدرسة لأجلها ولأجل الكيمياء ، هكذا هناك علم آخر له تلاميذ يتعلمون و يصيرون أساتذة ، ولن يفيضوا العلم على الناس إلا بعد أن ينبتوا قواعد ذلك العلم بالتمرين ، ومن هم هؤلاء الناس ؟ هم هداة النفوس ، فأما العلماء المتقدمون فانما يعلمون أمورا أقرب إلى الأجسام الحسية ، أما هداة النفوس فعلومهم وتمارينهم كلها نفسيه ، وهؤلاء لن تعيش أمة فى الأرض إلا بأن يكون هؤلاء مبثين بين أفرادها ، وعلم هؤلاء معرفة الله وتوحيده ، وتمارينهم هى الصلوات ، فاذا قرأ الناس دينا ولم يمرّنوا نفوسهم على صلواته فان هذا الدين لايرفع هذه الأمة كما لايرفع علم الحساب ولاعلم النحو صاحبيهما إلا اذا كانا قد تمرّنا على هذين العلمين ، فاذا سمعنا الله يقول فى آخر سورة الطور : « وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » قلنا هذا هو تمرين هذه الطبقة على قواعد علمهم كما يتمرّن النحوى على المرفوع والمنصوب ، فالنحوى يحفظ لسانه بذلك التمرين ، وهذا العالم النفسى الدينى يرفع نفسه بالصلاة وتصبح نفسه ذات صلة بخالقه لكثرة التكرار فى الصلوات كما يتكرّر الحل لمسائل الحساب فذاك يحلّ مشاكل الحساب بسهولة وهذا تتوارد المعانى على قلبه بسبب تكرار الصلوات والعبادات ، وهذا هو السرّ فى ذكر الوحى بعد قيام الليل .

اسمعى يا أمة الاسلام : يجب تغيير المناهج الحالية ، أطهروا عواطف الاسلام ، لاتبتدئوا بعلم الفقه كرة واحدة بحذافيره ، بل يجب الابتداء بما يرقق القلوب و يصفيها ، فتذكرون صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم ورحمته وأخلاق أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وليحذف من التعاليم كل خلاف شجر بين الصحابة ، ثم لتسمعوهم جمال الطبيعة المسمى بعلم الأشياء مقرونا بالآيات القرآنية ، وأنتم فى ذلك تصلون معهم صلاة حاضرة فيها قلوبهم ، بل مروهم أن يقوموا بالليل كما كان يفعل صلى الله عليه وسلم فهذا التمرين لابد منه حتى يثبت حب الله فى قلبه و يمتزج بدمه ، ثم بعد ذلك ادرسوا علوم الفقه والاصول والعلوم الأخرى كما تشاءون .

لماذا وجب المران فى كل شىء

قد ظهر أن المادّة ليست شيئا مذكورا ، المهم إلا أنها آثار متحركة اجتمعت وقد اختلفت مظاهرها باختلاف حركاتها (انظره فى سورة النور عند آيه : الله نور السموات والأرض) .

ياعجبا : إذن أجسامنا نور متكاثف ولكنه متحرّك حركات سريعة جدّا تبلغ نحو ستة آلاف مليون مليون حركة فى الثانية ، ثم ان هذه الأجسام لاتظهر ثمراتها إلا بالحركات كأن تلك الأجسام بهيئة خاصة فتكون الكهرباء كأنها لما كانت دائمة التحرّك أبت أن يستخرج مافيها من الأسرار إلا بحركات جديدة غير حركاتها الطبيعية ، العالم حركات منظمات لاغير فى شىء سموه الأثير ، ولن تستخرج كنوز المادّة إلا بالحركة أيضا ، ولو أمكن استخراج مافى الجوهر الفرد بأى عمل كان وخرج منه ما كان كامنا فيه لأخرج حرارة وضوءا بهما تصبح الأرض مشتعلة جميعها . هذا كلام علماء زماننا .

الله أكبر : إذن نحن الآن فى وسط عجائب وغرائب ، إذن جسمى أنا فيه من الكنوز مالاحصر له ، وذلك فى ذرّاته هو المادّية ، واذا كان جسمى على هذا النمط فكيف بأرواحنا ! تلك الأرواح التى لها صلة مّا بصانع العالم ، وهو على طريق المجاز نور وشعاع من ابداعه فلها قرب ما ، ولكن لن يستخرج ما كمن فيها إلا بالعبادات لأنها تكرار وتمرين على القواعد الكلية للدين ، فبها يذكر اسم الله ، وتذكر نعمه ، ويتوجه العبد إليه ،

فاذا كان الجوهر الفرد باستخراج ما كمن فيه إن أمكن يقلب الأرض كلها ، فرجل واحد اذا استخرجت قواه بالصلوات والعبادات ، وكان ذا قلب سليم محبّ للعلم مخلص فهذا يقلب نوع الانسان كله أو بعضه ، وهؤلاء هم الأنبياء ويتبعهم المخلصون المحققون من أممهم .

وملخص هذا المقام أن العلوم لايتمّ الانتفاع بها إلا بالتمرين ، وأجلّ العلوم معرفة الله ، وهذه لاتتمّ إلا بالعبادات ، وهذه العبادات مثبتات لتلك المعرفة ، معينات على تلقى ذلك العلم إلى النهاية فيصل لربه ويصير مرشدا للأمم ، والنبىّ صلى الله عليه وسلم كان يصلى بالليل ، ورأى من آيات ربه الكبرى ، وأوحى إليه ، فهدى الناس ، وهكذا تابعوه المخلصون من هذه الأمة لكنهم لايوحى إليهم بل يهتدون بهديه ويصلون ، وخواصهم يقومون الليل كما كان يقوم ، ويتعلمون ويفتح عليهم ، ويقرءون علوم الأمم حتى اذا ماسمعوا أن شجرة المتهى يسير الراكب فى ظل كل فنن من أفنانها مائة سنة ، أو يستظل بظلها مائة ألف راكب فانه يقول إن العلوم اليوم قرّبت هذه المسائل لأننا اذا رأينا فى السدم المتقدم ذكرها وهى ألفا مليون مليون سديم ، وكل سديم منها فيه ألف مليون شمس على الأقلّ ، والضوء يجرى فى مجرّتنا وحدها مئات الألوف من السنين فهذا معناه أن عالم المادّة مدهش وعجيب فكيف بعالم الغيب الذى لايعرفه إلا الأنبياء ، فأصبحت العلوم اليوم مفهمات ومقرّبات لمسائل الدين .

فلما سمع ذلك صاحبى قال الحمد لله الذى بنعمته تتمّ الصالحات ، والى هنا تمّ الكلام على القسم الأوّل فى تفسير البسملة . انتهى ليلة السبت ٢٩ أغسطس سنة ١٩٣١ م

مقدمة في مناسبة هذه السورة لما قبلها

لقد ختمت السورة المتقدمة بعبادات تقرّب العبد من الله ، وأخلاق شريفة : كالصبر على مايصيب الانسان ، وأن يقول المرء عند القيام من الليل ، وعند القيام إلى الصلاة . وعند القيام من أى مجلس كان : « سبحانك اللهم وبحمدك » ونحوها ، وبالعبادة ليلا كصلاة المغرب والعشاء ، وكصلاة ركعتين بعد الفجر اذا أدبرت النجوم ، وهما ركعتا الفجر قبل الفرض كما أن ادبار السجود الركعتان بعد المغرب ، فهذه العبادات مذكرات بالله ، مقرّبات العبد من ربه ، لأن كثرة الذكر تؤثر فى النفس ، تستحضر المذكور استحضارا تقرّ به النفس على طول الزمان ، وذلك هو الذى يهيئ النفس الانسانية للالهام فى عامة الناس وللوحى فى الأنبياء .

ولقد

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يتعبد فى غار حراء فأوحى إليه ، فههنا ذكرت العبادة فى آخر [سورة الطور] واتبعت بالوحى فى [سورة النجم] تعليما للأمة أن من أكثر من ذكر الله عند قيامه من النوم ، ومن مجلسه ، وللصلاة ، وصلى المغرب والعشاء بحضور قلب ، وفى بعض الليل ، وركعتى الفجر ، فانه أقرب إلى الالهام من غيره .

وينبغى لمن يتصدّى لارشاد الأمة أن يكون هذا خلقه ، فان لم يفعل ذلك كانت آثاره ضائعة فى الأمة لأن النفوس التى لاتشرق بذكر الله لاتؤثر فى الأمة ، وكأنّ الذاكر باقتراب قلبه من المذكور يتجلى عليه فيفيض العلم على قلبه فتحس النفوس بذلك الفيض فتقبله ، وفى ذكر إدبار النجوم وتعقيبه بالنجم اذا هوى مناسبة لطيفة ، وكأنه يقول : أيها الناس : انه ﷺ يقوم الليل و يصلى المغرب والعشاء ، ويذكر الله عند قيامه من النوم ، وعند قيامه للصلاة ، ويصلى ركعتى الفجر ، فهوفى عبادة إلى مطلع الفجر اذا أدبرت النجوم فاستحق بذلك أن أفيض عليه العلم والوحى ، وذلك فى :

القسم الثاني فى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوحى إليه . وفى قربه من ربه

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(والنجم اذا هوى) أى أقسم بجنس النجوم اذا غربت أوطلعت ، يقال هوى هويا [بالفتح] اذا سقط وغرب ، وهويا [بالضم] اذا علا وصعد ، أوبالنجم من نجوم القرآن اذا نزل ، فالنجم السماوى عند شروقه وعند غروبه يشعر النفوس بجمال الابداع وحكمة الخلق وهكذا نجم القرآن وقد نزل القرآن فى عشرين سنة ، أقسم الله بذلك وجواب القسم قوله (ماضلّ صاحبكم) ماعدل محمد ﷺ عن الطريق المستقيم (وماغوى) وما اعتقد باطلا ، والخطاب لقريش (وماينطق عن الهوى) أى بالهوى : أى لايتكلم بالباطل ، وذلك ردّ لقولهم : ان محمدا يقول القرآن من تلقاء نفسه (إن هو إلا وحى يوحى) أى ما القرآن إلا وحى يوحيه الله إليه (علمه شديد القوى) ملك شديد قواه وهوجبريل ، ويقال انه اقتلع قرى قوم لوط وحملها على جناحه ، ورفعها إلى السماء ، ثم قلبها ، وصاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين ، هذا هو الذى يقوله علماء التفسير رحمهم الله ، وقد جاء فى علم الأرواح الحديث أن للأرواح من القوى مايعجز البشر ، وكلما ارتقت الروح كانت أعلم وأقدر على الأفعال العظيمة ، ولقد مرّ عليك فى هذا التفسير فى [سورة البقرة] مارفعه خمسة عشر ألف نفس إلى مجلس الأعيان فى الولايات المتحدة وقولهم : انا رأينا أنوارا وسمعنا أصواتا وشهدنا زلزلة وأمورا عظاما ، فهانحن أولاء جئنا إلى مجلسكم الموقر لنستجلى حقيقة الأمر فى ذلك ، وهذا عنداستحضار الأرواح الى آخر ماهنالك وقد ذكرته هناك بلفظه فارجع إليه ، واذا كان هذا فى الأرواح التى فارقت أرضنا فما بالك بالأرواح العلوية كجبريل ، فانظر للعلم الحديث كيف أظهر ما كان العقل لايصدّقه وانما يؤمن الناس به إيمانا ، فالملائكة أقوياء الأجسام فى عقولهم حصافة رأى وتدبير وحكمة ، وهذا هوقوله (ذومرّة) ولعلك تذكر مامرّ فى هذا التفسير نقلا عن علماء الطبيعة فى أوروبا لاسيما [أوليفرلودج] وقوله : « انى أصبحت موقنا أننا نحيط بالعالم نحن بالنسبة إليه كالنمل بالنسبة لنا وهم يساعدوننا ويحافظون علينا و يقول هذا وقفت عليه بطريق علمى بريد تحضير الأرواح ، ثم قال : فاذن ما دله القديسون من أنهم رأوا الملائكة ، أوأنهم رأوا الله ، كل ذلك حقّ لامرية فيه ، وهذا من عجائب القرآن ، إن سمعياته أصبحت اليوم تذاع بين الناس بصفة علوم

روحية وكشف حديث ، وذلك هوقوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » فقوله «فى الآفاق» راجع لما كشف حديثا كالبحر المسجور المتقدّم ، وقوله « وفى أنفسهم » كقوله « شديد القوى ذومرّة » فان القوّة الجسمية والعقلية للعالم الروحى قد ظهرت بطريق علم الأرواح ، وهذا يستحيل أن يعرفه الناس إلا بالاستحضار أوالتنويم المغناطيسى ، وكلاهما لن يكون إلا بالأنفس البشرية ، فان التنويم المغناطيسى معناه انخلاع النفس عن البدن انخلاعا جزئيا أوكليا وهى به مربوطة وهناك تتصل بالعوالم الروحية ، فاذن معرفة العالم الروحى لم تتم إلا بواسطة أنفسنا ، ولعلك تذكر ماسرّ فى [سورة البقرة] من تنويم المريض حتى اطلع على مرضه وعلى دوائه ، وبين أوقات المرض المقبلة بالدقة ، وبين الأدوية اللازمة ، وهذا كان أمام أكابر الأطباء بفرنسا كماشرحته هناك ، وتمّ كل هذا بعد الامتحان الدقيق والحرص الشديد والانتباه التامّ ، فهذه النفوس الانسانية المتعلقة بأجسامنا هذا شأنها ، ومن شأنها أن تنطلق وتكلم الأرواح الأخرى كما عرفت ، فهذا هوالمقصود من إراءتنا آيات الله فى الأنفس والآفاق ، ولقد تجلى لك فى هذا التفسير أكثر ماتجلى فى الآفاق من عجائب الطبيعة ، وماتجلى للأنفس من عالم الأرواح والملائكة ، وسترى بعدذلك مايظهر من العجائب ، فعلى المسلمين أن يفكروا فيها ، وأن يعلموها ، وقوله (فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أوأدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى) أى استقام على صورته الحقيقية التى خلقه الله عليها حين أحبّ رسول الله ﷺ أن يراه فى صورته الحقيقية ، فظهر له فى الأفق الأعلى : وهو أفق الشمس ، فملأ الأفق ، ثم أخذ جبريل يدنو من رسول الله ﷺ ويتدلى : أى يزيد فى القرب والنزول بقرب النبىّ ﷺ حتى كان منه مقدار قوسين ، والعرب تقدّر بالقوس وبالرمح وبالسوط وبالذراع والباع : أى فكان مقدار مسافة قربه مثل قدرقوسين أوأقرب على تقديركم ، وعلى مقدار فهمكم ، إذ تقولون قدر رمحين أوأقل ، وليس بعدالتدلى والقرب إلا الوحى ، فأوحى جبريل إلى عبدالله محمدصلى الله عليه وسلم ماأوحى ، عبر بذلك تفخيما للموحى به ، مثل ابه أوحى إليه « ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى ، فأما اليتيم فلاتقهر ، وأما السائل فلاتنهر ، وأما بنعمة ربك فحدّث » وهذا من عظائم الأمور ، ولاجرم أن ظهور الأرواح فى صور مرئية أصبح الآن معروفا ، وقد قصّ علماء الأرواح عجائب ، إذ تظهر الروح فى صور بشرية وصور نورية وتخاطبهم ، وذلك فى حال التنويم المغناطيسى ، وتحضر الفواكه ، وقد تمّ ذلك فى جهات كثيرة من الأرض والمسلمون لايعلمون ، وقد ذكرت كثيرا من هذا فى هذا التفسير فى مواضع كثيرة ، ظهر ذلك على يد الأمم الأوروبية من أرواح ليست فى شرف جبريل ، ولاهى مستنزلة على أنبياء ، بل على أناس امتازت قواهم بأنها مستعدّة للتنويم المغناطيسى وان لم تكن قدسية كأرواح الأنبياء ، فاذا صحّ هذا بالنسبة لآحاد الناس اليوم فليكن للأنبياء من باب أولى بطريق يناسب مقامهم ، إذ لاتتجلى الأرواح إلا بالمناسبة بين المتجلى والمتجلى عليه ، وههنا ظهر جبريل لنبينا ﷺ وتبدّت صورته له صلى الله عليه وسلم وهذا راجع لقوله : « شديد القوى » لأن ظهوره فى صورة مرئية راجع لقوّته وشدتها ، وقوله : « فأوحى إلى عبده ما أوحى » راجع لقوّته العلمية : أى قوله « ذومرّة » فهوعلى سبيل اللف والنشر المرتب ، ولما كان الانسان كثيرا مايظن أنه قد تخيل ما رآه ويكذب قلبه ماظهر له ، بل قال علماء الأرواح انهم لما خاطبوا الأرواح قالوا لهم : انكم كثيرا مايظهر لكم عجائب روحية فتظنونها من الوهم وتنسبونها إلى خداع الحواس ، فالناس فى أكثر أحوالهم يكذبون مايقع لهم من غرائب الأرواح مع أن فيهم من هم أقرب استعدادا لتجليها ، فلما كانت هذه عادة الناس أعقبه الله بما يفيد أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يقم بنفسه ان هذا خداع الحواس ولاأنه وهم فقال (ما كذب الفؤاد مارأى) أى ماقال فؤاده لمارآه لم أعرفك كمايحصل

لبعض العامّة بعض التجليات الجزئية فيظنونها وهما لأنهم ليسوا مؤيدين من الله (أفتمارونه على ما يرى) أفتجادلونه على ما رآه بعينه تلك الليلة ، بل صدّقه وحققه (ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى) أى ولقد رآه مرة أخرى كما رآه هذه المرّة فكان ظاهرا له بهيئته ، فكان قاب قوسين أوأدنى ، فأوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم فما حصل فى الأولى حصل فى الأخرى ، ولم يكن ذلك فى الأرض ، بل كان عند شجرة نبق فى السماء السابعة عن يمين العرش ، وهى فى منتهى الجنة أى آخرها ولم يجاوزها أحد فى الرقىّ من الخلائق وعلم الملائكة ينتهى إليها ، وماوراءها غيب لايعلمه إلا الله ، وأرواح الشهداء أيضا تنتهى إليها ، أوهى منتهى مايعرج من الأرض فيقبض منها ، واليها ينتهى مايهبط من فوقها فيقبض منها . وفى الحديث ان نبقها كقلال هجر ، و إن أوراقها كآذان الفيلة ، وقد غشيها من نور الله ماغشيها فتغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها ، ومن وصفها ان الراكب يسير فى ظلّ الفنن منها مائة سنة ، أو يستظل بظلها مائة ألف راكب فيها فراش الذهب ، ووصفها مقاتل أنها شجرة تحمل الحلى والحلل والثمار من جميع الألوان ولوأن ورقة وضعت منها فى الأرض لأضاءت لأهل الأرض ، وهى شجرة طوبى التى ذكرها الله فى [سورة الرعد] ولقد فهمت من هذا الملخص قوله تعالى (عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة مايغشى) أى رآه إذ يغشى السدرة مايغشاها من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله ، ومن الأنوار والاشراق والبهجة والحسن والنضارة ، ومن الملائكة ، ومن فراش الذهب ، من كل ماورد فى الحديث (مازاغ البصر) أى بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم أى ماعدل عن رؤية العجائب التى أمر برؤيتها ومكن منها ، ومامال يمينا ولا شمالا (وماطغى) وما جاوز ما أمر برؤيته (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) أى والله لقد رأى الكبرى من آياته وعجائبه الملكية والملكوتية ليلة المعراج ، ومنها نور رب العزة الذى غشى السدرة فلم يزغ بصره ، بل ثبت فى ذلك المقام الذى تزلّ فيه الأقدام حافظا قواه ، والآيات الكبرى منها ماذكر ومنها مالم يذكر ، ومنها أنه رأى رفرفا أخضر سدّ أفق السماء ، وانه رأى جبريل له ستمائة جناح .

ثم كأن الله يقول : هذا وصف ما رآه ، فماذا رأيتم أنتم أيها المشركون ؟ فهل ترون فى اللات والعزى ومناة من العجائب مارأى محمد ؟ وكيف تحصرون نفوسكم فى العالم المادّى وأصنامه وتقطعون على أنفسكم طريق الوصول والارتقاء ، إن النفس لاترقى إلا بما استعدّت له ، فاذاوقفت نفوسكم عندهذه المادّة وأصنامها لم يكن لها عروج إلى السماء :

القسم الثالث : تقريع المشركين على جهلهم وكفرهم بعبادة الأصنام

ونسبتهم البنات الى الله ، وأخذهم بالظن وبخلهم ، وفى حكم علمية ، وفى صفات لله علية

قال تعالى (أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى) هذه الثلاثة أصنام كانت لهم ، فاللات كان رجلا يلتّ السويق للحاج ، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه ، ثم صنعوا له صورة تعبد ، والعزى شجرة بغطفان كانوا يعبدونها فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقطعها ، فجعل يضربها بالفأس ويقول :

ياعزّ كفرانك لاسبحانك ✲ إنى رأيت الله قد أهانك

ومناة صخرة كانت لهذيل وخزاعة ، أولثقيف ، وكانت دماء النسائك تمى عندها أى تراق ، وقوله الأخرى صفة ذم : أى المتأخرة الوضيعة المقدار كما فى قوله تعالى : « وقالت أخراهم لأولاهم » أى وصعاؤهم لرؤسائهم وأشرافهم ، ولفظ الأخرى متعارف بين أبناء العرب المصريين بهذا المعنى فيقولون هو الآخر وهى الأخرى بمعنى الضعة ، وتأخر القدر والشرف .

ولما قرعهم على تنزل عقولهم لعبادة الأصنام ، وتماديها فى الجهالة ، وسقوط المنزلة عن المقام الأرفع عند سدرة المنتهى أخذ يذكر جهالات أخرى من جهالاتهم فقال (ألكم الذكر وله الأنثى) كانوا يزعمون أن هذه الأصنام هيا كل للملائكة ، أومواطن لجنيات تسكنها ، والملائكة والجنيات بنات الله ، أفرأيتم هذه الأصنام الثلاثة [ألكم الذكر وله الأنثى] تقريعا لهم وتوبيخا ، إذ يجعلون هذه الهيا كل لبنات الله من ملائكة أوجنّ ، وهم يأنفون من البنات ، ويصطفون الذكور . فكأن الله قد منحهم ماحرّمه على نفسه ، فقوله « أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى » مفعوله الثانى « ألكم الذكر وله الأنثى » كقوله « أفرأيتم ماتمنون أءنتم تخلقونه أم نحن الخالقون » (تلك إذن قسمة ضيزى) جائرة حيث جعلتم له ماتستنكفون منه وهى فعلى كفضلى من الضيز وهو الجور لكن كسرت فاؤه لتسلم الياء (إن هى إلا أسماء) أى ان الأصنام من حيث الألوهية إلا أسماء تطلقونها عليها وتقولون انها آلهة وليس فيها شىء من معنى الألوهية (سميتموها) أى سميتم بها (أنتم وآباؤكم) بهواكم (ما أنزل الله بها من سلطان) برهان (ان يتبعون إلا الظن) إلا توهم أن ماهم عليه حقّ تقليدا وتوهما باطلا (وماتهوى الأنفس) وماتشتهيه أنفسهم (ولقد جاءهم من ربهم الهدى) الرسول أوالكتاب (أم للانسان ماتمنى) بل أللانسان مايتمناه : أى ليس له كل ما يتمناه ، إذن ليس لهم مطمع فى شفاعة الآلهة المخترعة وليس لهم أن يطمعوا حيث يقولون : « ولئن رجعت إلى ربى ان لى عنده للحسنى » ويقولون «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » وما أشبه ذلك ، ومثل هذا أمانى الانسان فى نفسه أوأمته ، فالله هوالمدبر ، وعلى الانسان العمل والجد (فلله الآخرة والأولى) يعطى منهما مايشاء لمن يريد وليس لأحد أن يتحكم عليه فى شىء منهما (وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئا) أى وكثير من الملائكة لاتغنى شفاعتهم شيئا ولاتسمع ، فاذن أمر الشفاعة ضيق فان الملائكة مع قربهم من ربهم وكثرتهم لوشفعوا بأجمعهم لأحد لم تعن شفاعتهم قط ولم تنفع إلا اذا شفعوا من بعد أن يأذن الله لهم فى الشفاعة لمن يشاء الشفاعة له ويرضاه ويراه أهلا لأن يشفع له ، واذا كان هذا أمر الملائكة الذين هم عالم روحى أقرب إلى الرب من الأصنام وعباد الأصنام ، فكيف يكون الأمر إذن فى أصنام أرضية ميتة لاروح لها فى غاية البعد عن ذلك المقام الأقدس ، وبهذا فهمت قوله تعالى (إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، إن الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة) أى كل واحد منهم (تسمية الأنثى) بأن سموه بنتا (ومالهم به من علم) أى ومالهم بما يقولون من علم (ان يتبعون إلا الظن وان الظن لايغنى من الحق شيئا) فان الحق الذى هوحقيقة الشىء وماهوعليه إنما يعرف بالايقان لا بالظن والتوهم (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا) فأعرض عمن رأيته معرضا عن ذكر الله وهوالقرآن (ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك) أى اختيارهم الدنيا والرضا بها (مبلغهم من العلم) منتهى علمهم (إن ربك هوأعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) يقول انه يعلم من استعدّ للهداية ومن ليس أهلا ، فلاتتعب نفسك فى دعوتهم إنما عليك البلاغ (ولله مافى السموات ومافى الأرض) خلقا وملكا وعبيدا يهدى من يشاء ويضلّ من يشاء (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا) أى بعقاب عملهم (ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) أى بالمثوبة بالحسنى وهى الجنة على مقتضى النظام الذى وضعه بحيث يسير كل فى الطريق الذى قدّره له الله على مقتضى الاستعداد . ثم وصف المحسنين فقال (الذين يجتنبون كبائر الاثم) أى الذنب الذى يستحق صاحبه العقاب (والفواحش) جمع فاحشة ، وهى ماعظم قبحه من الأفعال والأقوال (إلا اللمم) إلاماقلّ وصغر من الذنوب أومقاربة المعصية من غيرمواقعة ، فهذامعفور من مجتنبى الكبائر ، والاستثناء منقطع (إن ربك واسع المغفرة) حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر ، وله أن يغفرمايشاء من الذنوب صغيرها وكبيرها ، وانماذكرها هنا لئلا ييأس صاحب الكبيرة

من رحمة الله ، والكبيرة كل ذنب ختمه الله بنار ، أوغضب ، أولعنة ، أوعذاب ، أوحدّ فى الدنيا ، أوأقدم صاحبه عليه من غير استشعار خوف أوندم ، أوترتب عليه مفاسد كبيرة ، ولوكان فى نظر الناس صغيرا ، فمن أمسك انسانا ليقتله ظالم ، أودلّ العدوّ على عورات البلاد ، فقد فعل كل منهما أمرا عظيما فيكون أكل مال اليتيم بالنسبة لهذين قليلا جدا مع أنه من الكبائر ، ولوكذب على انسان كذبا يعلم أنه يقتل بسببه فهذا من الكبائر أيضا ، فأما اذا كذب عليه وترتب على الكذب أخذ تفاحة منه فليس من الكبائر . يقول الله انه واسع المغفرة (هوأعلم بكم) أعلم بأحوالكم منكم (إذأنشأكم من الأرض واذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم) أى علم أحوالكم ومصارف أموركم حين ابتدأ خلقكم من التراب وحين صوركم فى الأرحام (فلاتزكوا أنفسكم) تنسبوها الى زكاء العمل ، وتثنوا عليها بزيادة الخير والطاعات ، أو بالطهارة من المعاصى ، فدعوا الثناء عليها واهضموها ، إن الله علم الزكى منكم ، والتقى أوّلا وآخرا قبل أن يخرجكم من صلب آدم ، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم .

وسبب ذلك أن ناسا كانوا يعملون أعمالا حسنة و يتولون صلاتنا وصيامنا وحجنا ، وكان ذلك على سبيل الاعجاب والرياء ، وليس على سبيل الاعتراف بالنعمة فانه جائز ، والمسرّة بالطاعة طاعة ، وذكرها شكر مالم تصبح كالحجاب على النفس فتمنع مايرد عليها من الواردات كما تقدم منقولا عن الامام العزالى فى [سورة آل عمران] وهذه الآية كآية : « إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم » فهناك يقول : كل شىء فى كتاب فما جاءكم من نعمة أوفاتكم منها فينبغى أن لايؤثر فيكم فرحا ولاترحا لأنا نحن كتبناه فى كتابنا ، فهكذا هنا يقول : لاينبغى تزكية النفس لأن ماعملناه مقدّر . وملخص الآيتين أن الكامل لايفرح بنعمة ، ولايحزن بنقمة ، ولايفتخر بفضل ، لأنه لاعمل له ولا تقدير والعمل لله وحده ، وهذه مرتبة شريفة متى وصلها الانسان كان سعيدا ، وهذه هى التى نقولها فى صلواتنا فى الركوع والاعتدال : « أهل الثناء والمجد أحقّ ماقال العبد ، وكلنا لك عبد ، لامانع لما أعطيت ، ولامعطى لما منعت ، ولاراذّ لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ » فهذا الدعاء يقصد منه الاستكمال بهذه المثابة الشريفة ، وقوله (هوأعلم بمن اتقى) أى يعلم التقىّ وغيره منكم قبل أن يخرجكم من صلب آدم (أفرأيت الذى تولى) أعرض عن الايمان (وأعطى قليلا وأكدى) قطع عطيته وأمسك ، وأصل ذلك أن الحافر تلقاه كدية أى صخرة عظيمة فيمسك عن الحفر (أعنده علم الغيب فهو يرى) أن الكفر والبخل من الأعمال النافعة عند الله (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى) أى بل ألم يخبر بما فى صحف موسى وهو التوراة (وابراهيم) أى وصحف ابراهيم (الذى وفى) أى وفى وأتمّ فما أمره الله بشىء إلاوفى به ولم يسأل مخلوقا ، فلما قذف فى النار قال له جبريل : ماحاجتك ؟ فقال أما إليك فلا ، وأيضا صبر على نار النمروذ وذبح ولده ، وقد كان يمشى كل يوم فرسخا يرتاد ضيفا فان وافقه أكرمه والانوى الصوم . ثم ذكر الله مافى صحفهما وهو مايأتى :

(١) أن لايؤاخذ الانسان بذنب غيره .
(٢) ولايثاب إلا على عمله .
(٣) وأن عمله سوف يرى يوم القيامة فى ميزانه .
(٤) وانه يجازى عليه الجزاء الأوفر .
(٥) وأن انتهاء الخلائق ورجوعهم إنما هو إلى ربهم فيجازيهم بأعمالهم .
(٦) وأن الله خالق الضحك والبكاء والفرح والحزن .
(٧) والموت والحياة .

(٨) وأنه خلق الذكر والأنثى من نطفة اذا تصب فى الرحم .

(٩) وهوالذى أعطى الغنى ، وأفاد القنية وهى أصول الأموال ومايدخرونه بعد الكفاية .

(١٠) وأنه هورب الشعرى ، وهوكوكب يطلع بعد الجوزاء فى شدة الحرّ وكانت خزاعة تعبدها فقال الله كلا انه هورب ها ، وأوّل من سنّ لهم ذلك أبوكبشة من أشرافهم عبدها . وقال : لأن النجوم تقطع السماء عرضا ، والشعرى تقطعها طولا ، فهى مخالفة لها فعبدها ، وخزاعة تبعه ، وتسمى الشعرى أيضا [كلب الجبار] والشعرى اثنتان : يمانية وشامية ، والمجرّة بينهما ، واحداهما تسمى العبور ، والأخرى تسمى الغميصاء وهى أخفى من العبور ، والمراد هنا العبور .

(١١) وأنه أهلك عادا الأولى القدماء لأنهم أولى الأمم هلاكا بعد قوم نوح .

(١٢) وثمود فما أبقى الفريقين .

(١٣) وقوم نوح من قبل عاد وثمود ، وقد كانوا أظلم وأطغى من الفريقين ، فلقد كانوا يؤذونه وينفرون عنه ويضربونه حتى لا يكون به حراك .

(١٤) والمؤتفكة : وهى القرى التى ائتفكت بأهلها : أى انقلبت ، وهى قرى قوم لوط ، أهواها الله وأسقطها ، فهو بعد أن رفعها قلبها (فغشاها ماغشى) فيه تهويل عظيم .

هذه أربع عشرة مسألة مذكورة فى صحف موسى وابراهيم وانما جىء بها لأن الذى تولى وأعطى قليلا وأمسك عطاءه غافل عن علم الله وعن العلم الذى أنزل على أنبيائه ، ومن هذا العلم هذه المسائل ، ومنها أنه لاينفعه إلا ماعمل من صالح كالعطاء فلماذا يمسكه . والعطاء بدون ايمان لاينفع فكيف يعرض عن الأصل وهوالايمان وعن الفرع وهوالعطاء ، وأكثر المفسرين رحمهم الله أنها نزلت فى الوليد بن المغيرة ، كان يتبع رسول الله ﷺ فعيره بعض المشركين وقال تركت دين الأشياخ وضلالتهم فقال أخشى عذاب الله ، فضمن بعضهم أن يتحمل عنه العذاب ان أعطاه بعض ماله ، فارتد وأعطى بعض المشروط ثم بخل بالباقى ، فهذا يذكره الله بأنه لم يطلع على علم الله حتى يعرف حقائق الأشياء وأن فعله المذكور ليس مرضيا عند الله ، وانه لا يؤاخذ أحد بذنب أحد فكيف ظنّ أن ذلك الرجل يتحمل عنه ذنبه يوم القيامة والآية عامة لاتختص بهذا السبب ولا بغيره كما رأيت .

ولما عدّد الله تلك المسائل وفيها عبر وحكم ، ومتى اعتبر بها الانسان صارت نعمة قال تعالى (فبأىّ آلاء ربك تمارى) أى فبأىّ نعم ربك أيها المخاطب تتشكك أبما أولاك من النعم أم بما كفاك من النقم ؟ وكلها دالة على وحدانية ربك وربوبيته فبأيها تتشكك مع أنها واضحة (هذا) أى محمد (نذير) منذر (من النذر الأولى) من المنذرين الأوّلين ، أوالأولى على معنى الجماعة ، أوالقرآن نذير من جنس الانذارات الأولى التى أنذر بها من قبلكم (أزفت الآزفة) قربت الساعة الموصوفة بالقرب فى قوله تعالى « اقتربت الساعة » (ليس لها من دون الله كاشفة) أى ليس لها نفس كاشفة أى مظهرة ومبينة متى تقوم إلا الله ، أوالكاشفة بمعنى الكشف كالعافية أى لا يكشف عنها ولا يظهرها إلا الله ، وهما يؤلان لمعنى واحد ، أو يقال ليس لها نفس قادرة على كشفها اذا وقعت إلا الله غير أنه لا يكشفها لأنه لابدّ ماض فى جزاء كل بما يستحقه كما يقتضيه نظامه فى السموات والأرض ، فالمعنيان الأوّلان بمعنى بيانها ، والمعنى الأخير بمعنى كشف غمها اذا وقعت . ثم قال تعالى (أفمن هذا الحديث) القرآن (تعجبون) انكارا (وتضحكون) استهزاء (ولا تبكون) تحزنا على مافرطتم (وأنتم سامدون) لاهون أومستكبرون يقال سمد البعير اذا رفع رأسه فى مسيره ، أومغنون من السمود وهوالغناء لتشاغلوا الناس عن استماعه (فاسجدوا لله واعبدوا) أى واعبدوه دون الآلهة . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « والنجم اذا هوى » .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا » .

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة اذا تمنى ، وأن عليه النشأة الأخرى» .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : والنجم اذا هوى

لقد علمت مناسبة أوّل هذه السورة لما قبلها ، وأدركت السرّ فى ذلك ، وأزيدك الآن وضوحا فأقول : لقد ختمت السورة السابقة بقوله تعالى : « وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » والتسبيح بالحمد إما سبحان الله وبحمده ، واما الصلاة ، ولاجرم أن التسبيح هو التنزيه ، والحمد هو الذكر بالجميل على الجميل الاختيارى : أى أن يشكر الانسان النعمة ، ليس المقصود مجرّد الألفاظ ، إنما يراد بالألفاظ وتكرارها إيقاظ القلوب إلى نعم علام الغيوب ﴿ و بعبارة أصرح ﴾ أن يتغلغل الانسان فى معرفة النعم أى أن يدرس هذا النظام الذى نعيش فيه ، فالعامة يكتفون بالتسبيح والتحميد اللفظيين المعينين على نور القلب واستعداده للفيض ، وحكماء الأمّة الاسلامية يسبحون ويحمدون ويكبرون لفظا ، ثم يتغلغلون فى الفكر والحكمة والعلم ، ويوقنون بأن الذكر بالقلب واللسان لهما أثر فى المعارف والعلوم ، وعلى ذلك يجدّون فى الحكمة ، ولعلك تقول : أين هذا فى هذه الآيات ؟ أقول لك : انظر إلى سورة ق والى سورة الذاريات والى سورة الطور ، ففى [ق] قرع الكفار ووبخهم على أنهم لم ينظروا مافى السموات ومافى الأرض ، وفى الذاريات والطور جعل الرياح والسحاب والمطر مقسما بها تعظيما لشأن العلم بها ودراستها ، وفى الطور أقسم بالعرش والفرش وبمعرفتهما ومعرفة مابينهما ، ولما ختم السورة أمر بالتسبيح والحمد ، والحمد يرجع إلى النعم ، والنعم إن لم تعرف فلا حمد عليها ، فأصبح أمر الحمد هو نفس أمر العلم ، والعلم بكل مخلوق فى الأرض وفى السماء بقدر الطاقة البشرية ، ومافى الأرض والسماء مذكور أوّل السورة وما قبلها ، وابتدأ سورة النجم بأن أقسم به لفتا لنظر العبد إلى النجوم فى اقبالها وادبارها ، واصباحها وامسائها ، حتى لايعيش الانسان فى دار وهو يجهل مايحيط به فيها ، وفى ذكر النجم تذكرة باشراق النجوم و باشراق النفوس بالعلم و بالعبادة و باشراق القرآن ، و باشراق الشرائع المنزلة ، و باشراق نور النبوّة ، وأن صاحبها ﷺ دنا من ربه فتدلى إلى آخره أودنا الله منه ، أودنا هو من جبريل ، هذه معان ثلاث رآها علماء آخرون جاءت فى التفسير ذكرتها لتطلع عليها حتى تقف على ماذكره العلماء ، ولا تضيع وقتك فى اقتفاء آثار الأقوال ، وانما يهمنا الحكمة والعلم فنقول :

لما رأى صلى الله عليه وسلم من آيات ربه الكبرى كان هذا نوعا من العلم ، لأن كل ما رآه الانسان ببصره أو بعقله فهو علم ، وهذا العلم يستوجب الحمد المذكور فى آخر السورة السابقة . يقول الله : « فسبح بحمد ربك حين تقوم » وهنا يقول : انى أطلعتك على عجائب ملكى ، وعلى شجرة عظيمة ، وعلى فراش من ذهب الخ وهذا العلم هو الموجب للحمد ، فكأنه فى السور السابقة شوّق النفوس للمعارف ، ذلك لأنه أقسم بالمخلوقات فى السورتين السابقتين ، وهذا تشويق للعلم بها ، وذكر فى سورة الطور البيت المعمور ، وهو فى السماء ففتح بهذا بابا للنفس ، وهنا يقول : انظر إلى عجائب خلقى ، ومتى اطلعت عرفت ، ومتى عرفت النعمة حمدت الله عليها ، فالحمد اللسانى قليل الجدوى .

يقول الله : ان محمدا ماضلّ وماغوى ، ثم قال انه اطلع على عالمنا وعجائبنا ، فلن يكون حمده المصحوب

بالتسبيح فى آخر السورة السابقة حمدا مصحوبا بعلم ، فلاحمد إلا على نعمة ، ولا بدّ أن تكون معلومة للحامد وهاهوذا قد اطلع على عجائبنا وحكمنا فى خلقنا .

ثمرة هذا المقام فى أمم الاسلام

مامن امرئ إلا وأحسّ فى نفسه بقول خفىّ تحدّثه به نفسه فتقول فى وقت مّا ماهذا الكوكب ؟ ماهذا النبات ؟ ما هذا الشجر ؟ ما هذا الحجر ؟ ماهذا المطر ، ومن أين جاء البحر ؟ وماهذه الشمس ؟ وماهذا النور ؟ وما أشبه ذلك ، ويودّ لو يقف على حقائقها ، ففى هذه السورة ابتدأ بذكر النجم تشويقا لدراسته ، وجاء فيها اطلاع النبى صلى الله عليه وسلم على عجائب هذه الدنيا وغرائبها ، فلئن كان هذا للأنبياء من غير تعليم فليكن لنا بطريق التعليم : وليس عظمة الثروة عند الأغنياء إلا مشوّقة لمن دونهم أن يكونوا على شاكلتهم ، فمن جملت صورته طبعا ، ومن ورث الملك عن أبيه ، ومن هو حادّ الذكاء من الناس قد كانوا قليلين فى الناس ، وليس معنى هذا أن الناس لايتولون الأحكام مالم يكونوا ملوكا ، ولايدرسون مالم تكن أذهانهم خارقة للعادة ، ولا يتجملون مالم يكونوا آية فى الجمال . كلا . فالأدنى يقلد الأعلى ، فاذا رأينا فى أنفسنا شوقا إلى الاطلاع إلى العالم فلنجدّ فى العلم حتى نعرف مانطيقه ، واذا أطلع الله نبيه على آياته الكبرى وجعلها له نعمة فلندرس نحن بعض آياته المشاهدة فى الطبيعة والفلك ، واذا وجدنا أنه صلى الله عليه وسلم رأى البيت المعمور ، وأن هناك ملائكة يدخلون وهم كثيرو العدد الخ فلندرس العلوم الفلكية ولنقرأ ماعرفه الناس وان هناك عوالم عظيمة وكواكب تصغر شمسنا دونها ، واذا رأينا أن سدرة المنتهى قد انتهت إليها علوم الخلائق فلايعرفون ما وراءها فلنعلم أن ذلك يفتح لنا باب العلم فندرس مافى طاقتنا دراسته حتى تقف عقول الناس ، إن الناس الى الآن يزيدون علما فى معرفة الكواكب والأفلاك والطبيعة ولم يقف الناس وهم يزيدون كل يوم كشفا وعلما فلندرس علومهم لأنها فى حيز الامكان ﴿و بعبارة أخرى﴾ لم تصل العلوم إلى سدرة المنتهى فلو أنها وصلت إليها لوقفت العقول وأعلن العلماء أن العلم لايزيد ، ولكن العلم يزيد ، ولايجوز للمسلمين أن يقولوا : ان العلم قاصر على الفرنجة ، فهاهوذا نبينا ﷺ يقول : إن للخلائق حدّا فى العلم ، وليس معنى هذا أن يكون العلم خاصا بغير المسلمين فان قدوتنا ﷺ هوالذى اطلع على آيات ربه الكبرى بلاتعليم ، فلنطلع نحن على آيات ربنا بالتعليم لأننا من الخلائق ، ولايصح أن نستثنى أنفسنا لأننا بهذا نكون قد جهلنا ديننا ولم نقتد بنبينا الذى أمره الله أن يقول « رب زدنى علما » فليس يصح لنا ألا نقول ذلك

يفتح لنا صلى الله عليه وسلم باب العلم ويقول انه رأى سدرة المنتهى ، وأن هناك علوما ومعارف ، ويقول ان ماوراء سدرة المنتهى ممنوع عن الخلائق ، وكل هذا يؤخذ من « سبحان الله والحمد لله والله أكبر » فالتسبيح تنزيه الله ، والتحميد معرفة حقّ النعمة ، والتكبير الاعتراف بأنه أكبر مما نعلم ، فاذا كان التسبيح والتكبير والتحميد وراء الصلوات فهو مذكرلنا بذلك ، مذكرلنا بأن تسمو نفوسنا أخلاقا وآدابا ، ونتفرّغ للعلم ، فتنزيه الله عن المادّة ولواحقها يفسح لنا باب التفرّغ للعلم وترك المألوفات ، والتبرّى من العادات ، لأن العلم لايدخل إلا قلوبا لها حظ من التهذيب والتأديب ، وهذا نوع من التنزيه عن المادة والعلم للنفوس المهذبة أقرب وهو المتيسر له بالجد ، والعلم أمده طويل ولاحدّ له ، فليجدّ الانسان فيه ليقرب من خالقه ، وعلى مقدار علمه يكون قربه ، فما قرب ﷺ إلا قربا علميا ونحوه ، لاقرب الذات بل قرب المعنى ، ثم نعلم فوق ذلك أن الله أكبر من كل ماعرفناه ومايعرفه الخلق من ملائكة وجنّ وانس ، فالتسبيح والتحميد والتكبير فى الاسلام فواتح لرقىّ المسلمين كما تراه فى هذا المقام ، ولم يقف عند ذكر اللسان وحلاوة اللسان ، ولو قصد ذلك ماذكرت

obeikandl.com

سورة النجم بعد الطور التى ختمت بالتسبيح والتحميد ، بل جىء فى سورة النجم التى فى أولها المعارف والعلوم وأنه رأى من آيات ربه الكبرى ، فليقرأ المسلمون علوم العوالم المحيطة بنا ، فليقرءوا تلك الكواكب البعيدة المدهشة التى يصل ضوءها فى مئات السنين ، بل فى ألوف السنين ، بل فى ملايين السنين ، واذن تكون شمسنا قريبة جدا ، بل تكون المسافة بيننا و بينها بالنسبة لغيرها أشبه بطول رمح صغير بالنسبة لمحيط الأرض عشرمرات ، ويكون ضوءها وقدرها بالنسبة لغيرها ضعيفين جدا وقليلين ، فراجع ما تقدم فى [سورة آل عمران] تجد مانقلته هناك من أبعاد الكواكب عن أرضنا وفى سورغيرها كالأنعام وهكذا تقدم فى هذا التفسير ماذكرته روح غاليلى من العوالم البديعة ، والخلائق العجيبة ، التى تعيش عيشا لايحلم به أهل الأرض والى هنا تمّ الكلام على اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « والنجم اذا هوى » والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى : « وأنه هوأضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا ، وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة اذا تمنى ، وأن عليه النشأة الأخرى ، وأنه هوأغنى وأقنى وأنه هو رب الشعرى ، وأنه أهلك عادا الأولى ، وثمود فما أبقى ، وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ، والمؤتفكة أهوى ، فغشاها ماغشى ، فبأى آلاء ربك تتمارى»

قال صاحبي الذى اعتاد مسامرتى فى هذا التفسير : الله أضحك وأبكى ، الله أمات وأحيا ، الله أهلك عادا ، الله أهلك ثمودا ، وقوم نوح ، وأهوى المؤتفكة ، وانتهت الآية ان هذه آلاء الله ، الآلاء النعم ، أمن النعم أن يبكى العيون ويهلك الأمم ؟ نعم هذا السؤال ورد كثيرا فى هذا التفسير وكثرت الاجابة عليه ولكن النفس لاتزال تطالب بالمزيد ، فحدّثنى أليس الله أرحم الراحمين ؟ أليس الله قدوة لنا فى أفعاله ، الله أهلك أمما وأبكى عيونا ، واذا قتل أحدنا انسانا عمدا دخل جهنم ، الله يهلك أمما ، الله يسلط الميكروب على الأمم فيهلكها ، ويسلط الأمم القوية على الضعيفة فتذلها ، الله يسلط الوحوش على آكلات الحشائش فتأكلها ، كل هذا فعل الله ، لأن هذا نظامه ، ثم تشريعه لنا على خلاف ذلك ، فنحن بقتلنا انسانا عمدا نعذب فى جهنم يوم القيامة ، وتحكم شريعتنا علينا بالقتل . واذا كان الله أرحم الراحمين هذا فعله فكيف بنا نحن الضعاف فى الأرض ؟ هذه المعانى تتردّد فى نفسى صباحا ومساء ، وكل ما جاء فى هذا التفسير من الأجوبة فيما مضى فانما هى أجوبة جزئية ، والجزئيات لاتغنى عن الكليات ، فأنا الساعة يوم الأربعاء ١٢ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية — ٢٠ يناير سنة ١٩٣٢ م أريد اجابة شاملة كاملة حتى لا أحتاج إلى سؤال بعدها فى هذا الشأن . فقلت : ماذا تقول فى آية : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » . فقال : وماذا تقول فى آية : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط » فنحن الآن فى مقام السير فى طريق أولى العلم الذين يشهدون ببصائرهم أن صانع العالم قائم فى عمله بالقسط والعدل ، نريد أن نشهد ونحن فى الأرض كيف كان الله قائما بالقسط فى تدبير الخلق ، وفوق ذلك نريد أن نفهم كيف يمكن الجمع بين هذا الاهلاك والابكاء والتدمير وابدة الأمم وادلالها و بين اسمه [الودود] . ألم يقل الله [وهوالغفور الودود ذوالعرش المجيد ، فعال لما يريد] ولاجرم أن الودود يفعل مايريد ، ولكن هل يلقى ودّه إليهم ، ويكون فعله محبوبا لأنه أتى على سبيل المحبة ، وهواهلاك المدن ، وازالة الدول ، وابكاء العيون أيكون ذلك ودّا ، وأيصاحبه فى القرآن آيات فى سور كثيرة كلها دالة على تنزيهه فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وذلك بصفة التسبيح ، والتسبيح تنزيه ، وهذا المعنى جاء مصدرا وفعلا ماضيا وفعلا مضارعا وأمرا ، فهومصدر فى سور كثيرة مثل : « سبحان الذى

أسرى بعبده ليلا» . « وسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون » وفى هذه السورة ، وفى آخر السورة قبلها : « ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » وسيأتى فى [سورة الحديد] : « سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » وذكر الاحياء والاماتة هناك كما ذكرها هنا ، وفى آخر [سورة الحشر] : « يسبح له مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » وفى آخر [سورة المجادلة] : « رضى الله عنهم ورضوا عنه » إن رضا العبد عن ربه وتنزيهه وحبه وودّه يعوزه الاطلاع على جمال الأفعال ، والأفعال الالهية المذكورة مشكلة مع أوصاف الحب والودّ والرضا الخ فأرجو الاجابة على هذا حتى لا أعود إلى السؤال كرّة أخرى . فقلت : سأسامرك ان شاء الله فى أوّل [سورة الحديد] فى هذه المعانى وهنالك تتجلى المعانى التى تريدها وان كان أكثر ماسألقيه عليك هناك قد مضى كثير منه متفرّقا فيما مضى من التفسير . وسأشرح :

(١) النظام التكوينى .

(٢) والنظام التشريعى وأنهما متفقان .

(٣) وأبين درجات التربية الست :

(٤) تربية الأمّ لولدها .

(٥) وتربية الأب له .

(٦) وتربية المعلم .

(٧) وتربية الحكومة للأفراد مع مايتبع ذلك من نظام الجندية .

(٨) التربية الالهية وأنواع الزلازل والحوادث العظيمة .

(٩) وأن الأم حين تمنع ولدها مايضرّه وهو يبكى لم يمنع ذلك حبها له ، وقد ضربت مثلا لدرجات التربية التى بعدها ، وبمقدار ازدياد العلم تعرف حقائق تلك التربية ويزداد الحب للمربى .

(١٠) وبيان أن العلم إما بهيئة سطحية كعلم الشعراء والأدباء ، واما بهيئة حكمية فلسفية عالية كعلم الحكماء ، وايضاح ذلك وتفصيله من كلام [كونفوشيوس] فيلسوف الصين الذى توفى فى القرن الرابع قبل الميلاد .

(١١) ثم بيان أن الحب على مقدار العلم .

(١٢) بيان أن الله توارى عنا بحجبه ولكنه قذف لنا كرات جميلة لاحصر لعددها ، وهى الشموس والكواكب ، وهو يقرّبها و يبعدها ليجذبنا إلى حضرته ، وجعل الشطرنج والنرد عند اللاعبين مثلا لذلك كما جعل الجمل والحب الأدنيين مثلين لجماله وحبه الأعليين ، وصنع للناس فى الأرض عجائب لولا حوادث الموت والحياة ومزعجات الليالى لدهمت عقولهم ، فمن سرج تجرى فى سقف مرفوع تدور حولهم ، ومن حدائق وحقول حولهم ومناظر بهجات ، وتارة يرسل لهم شهبا تقترب من أرضهم ليوقضهم إلى العلا ، ونسبة هذه الأعاجيب إلى صانعها كنسبة صفات الكرة والصولجان والنرد والشطرنج إلى مخترعيها ، والتعجب يكون على مقدار اتقان الصنعة .

هذا ماسأذكره هناك ان شاء الله مع شذرات فى الآيات التى ذكرتها أيها الأخ الذكىّ . فلما سمع ذلك قال : إن هذا لعجب ! وانى لفى غاية الشوق إلى ماوصفت . انتهت اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة اذا تمنى ، وأن عليه النشأة الأخرى »

بسم الله الرحمن الرحيم

الرحمة مذكورة في البسملة في أوّل هذه السورة وهي منبثة في أجزائها كما هي منبثة في أجزاء العالم الذي نعيش فيه الذي هو محل دراستنا كما أنه مناط حياتنا .

اللهم انك أنت الحكيم العليم الملهم الهادي ، نحمدك اللهم على الهداية ، وعلى الحكمة ، وعلى النور والعرفان ، العرفان الذي ابتهجت به يوم الأحد الماضي في تفسير هذه الآيات ، وذلك بتاريخ ١٤ مارس سنة ١٩٣٢ م في شهر شوّال سنة ١٣٥٠ هـ

خرجت من القاهرة مع أهل بيتي لمشاهدة حقلنا الذي اعتدت في هذا التفسير أن أكتب خواطري فيه تلك الخواطر التي ترد في المزارع والحقول ، وقد امتزج المعقول فيها والمنقول ، نور والله على نور ، نور الوجود على نور الكتاب المبين ، نور الحكمة العلمية يزدان بكتابنا المقدّس ، كتابنا الذي جاء به الوحي تفسره المناظر الطبيعية ، وتشرح تفسيره المباهج الحقلية ، ركبنا القطار من القاهرة ، آذن القطار بالمسير إذ ارتفع صفيره ، وازداد شهيقه وزفيره ، وأخذ يطوي الأرض طيا من محطة الليمون عند القاهرة ميمما محطة المرج وهي التي منها نتوجه إلى حقلنا ، هنالك أخذ الفكر يجول في عالمنا الذي خلقنا فيه ، وخيل لي أن روحا علويا بجانبي قد تمثل لي بشرا سويا ، وقد أخذ يخاطبني ، وما أجمل الخطاب ، وما ألذ حديثه المستطاب . إذ أخذنا نتجاذب أطراف الحديث من قديم وحديث ، هنالك نسيت القطار ومن فيه ، وخرجت من ضيق الأرض إلى فسيح السموات ، وغبت عن عالم الحس ، وارتقيت إلى عالم الروح والعقل ، وسموت إلى فسيح السموات تذكيرا وتفكيرا .

هنالك قال لي الروح : انظر إلى عجائب الشمس ، انظر إليها كيف ترسل ذرّات النور متتاليات متتابعات في الجوّ ، وانظر كيف تسافر تلك الذرّات في فسيح الجوّ جاريات منها إلى الأرض ، ما أسرع جريها ، انها تجري حثيثا من حين خروجها إلى أن تصل إلى أرضكم هذه في ٨ دقائق و١٨ ثانية ، تجري وتلحقها أخرى بتقدير محكم ونظام عجيب ، وهذه الذرّات الضوئية المشاهدة يحسبها الناس غير موزونة وهي موزونة (لقد تقدم في هذا التفسير أن علماء عصرنا قد وجدوا للضوء وزنا ، وأن الشمس تخرج في الثانية الواحدة منه ما يقدّر بمئات الملايين من القناطير المقنطرة ، كل هذا واضح فيما تقدّم بأجلى بيان ، ذلك لأن النور عبارة عن حركات ، والحركات طبعا لها ميل واتجاه ، وهذا الاتجاه له ثقل وان كان ذلك لا يكاد يشعر به أحد ، ولكن اجتماع الكثير الذي لا حصر له يوجب ثقلا عظيما كما قدّمناه) . ثم قال : وهذا الضوء الذي هذه صفته يجري في جوّ أثقل منه بما لا حدّ له (أقول : انظر ما تقدم في أوّل سورة الصافات ، فقد أثبت العلماء في عصرنا أن هذا الجوّ الفسيح بقطع النظر عن الهواء الذي هو فيه مملوء بما يسمونه [الأثير] والأثير عالم لا نحسّ به ، وقد قلنا انه أشبه بخيالنا نحن ، فكما أن خيالنا لا وزن له وهو موجود هكذا هذا الأثير يظن الانسان أنه لا وزن له بل لا وجود ، ولكن العلماء أثبتوا وجوده ووزنه ، ولكنه وزن مدهش إذ قالوا انه لو قدّر وكان مادّة محسوسة لكان أثقل من الحديد بمئات المرّات ، وهذا المقام محقق هناك بقدر الامكان فارجع إليه ، ويقرب من ذلك أن الشمس والكواكب والأرض كلها متجاذبات ، والحبال التي تتجاذب بها وتمسك بها هذه الأجرام الكبيرة ، هو هذا الاثير فلنفرضه حبالا ، وهذه الحبال المعنوية بها تجذب الشمس الأرض والسيارات ، وتجذب الأرض القمر [و بعبارة أخرى] اننا نعيش في جوّ مشبع بالجذب ، فهذا الجذب

قوّة ، وهذه القوّة لوجسمت لكانت أثقل من الحديد والرصاص والأحجار بآلاف المرّات ، وهذا الذى قلته الآن يسهل عليك أيها الأخ فهم مقال الروح لى ، ويزداد به فهم ما ذكره العلماء ونقلته فى أوّل [سورة الصافات] وذكرت هذا الايضاح هناك) .

ثم قال الروح بعد ذلك : انظر الطيور ، انظر الحشرات ، انظر الأشجار ، انظر هذا كله . قلت ثم ماذا ؟ قال : قد فهمت منظر الشمس ، وفهمت اخراجها لأنوارها ، وانها جاريات فى عالم قوىّ متين ، وهذا العالم القوىّ المتين هو الأثير ، ذلك الأثير القوىّ المتين الذى به عرفتم قوله تعالى : « و بنينا فوقكم سبعا شدادا » فكل كوكب يحيط به أثير ، والعيون تنظر الجوّ إلى أمد محدود ، وهنالك ترى قبة منظورة واضحة لايشك من رآها أنها سماء تظله كما لايشك الرجال والنساء فى سقوف بيوتهم أنها تظلهم ، وهذه السماء المنظورة عبارة عن أجزاء من الهواء منبثة فى أجزاء الأثير ، والأثير هو الأصل ، والأثير قوىّ متين قوّة لاحدّ لها ، وهذا قوله تعالى : « و بنينا فوقكم سبعا شدادا » فالشدّة الآن واضحة أشدّ وضوح فى زماننا ، وقوله بعدها : « وجعلنا سراجا وهاجا » بيان للضوء الجارى من الشمس فى ذلك الجوّ الشديد القوىّ المتين ، وهذا الجوّ القوىّ المتين هو العمد الذى لم تروه فى آية : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها » فهذا الأثير عمد غير مرئية ، وهذه العمد قوية متينة ، وكيف لاتكون قوية متينة ، وقد رفع فوقها سماء شديدة [و بنينا فوقكم سبعا شدادا] .

ثم قال : اذا عرفت هذا فأنت الآن وجميع بنى آدم وكل حيوان ونبات تعيشون فى وسط واحد يغمركم جوّ الأثير ، ذلك العالم الخفىّ القوىّ المتين ، النور يشرق عليكم جميعا ، إذن هذا العالم جسم واحد ، وهذا الجسم يشرق عليه نوران : نور حسى ، ونور معنوى ، فالنور الحسى قد شرحناه ، والنور المعنوى هو الذى سنشرحه الآن ، فهذه الطيور لها غرائز وأنواع من الادراك وهكذا الانسان ، بل النبات له نوع احساس ، وما ذلك كله إلا أنوار معنوية ، واذا كان للنور منبع وهو الشمس ، وقد سطع على كل برّ وبحر ، وعامر وقفر ، ونبات وحيوان وانسان ، فهكذا ذلك النور المعنوى المنبعث من عوالم أرقى من الشمس ، عوالم هى شموس العقول والادراك ، عوالم أنتجت بقدرة الله وعلمه ، هذه الشموس هى أولى باسم الوجود ، هى أولى باسم النور ، هى أعمدة لهذه العصافير الطائرات ، المغرّدات المربيات لذرّيتها ، هى المعطيات لهذه الحشرات ادراكها وعلمها .

أيها الجوهرى : ألاخبرنى رعاك الله ؟ ألم تقرأ ماجاء فى كشفكم الحديث فى أرضكم أن هناك فى المزارع التى تراها مادّة تسمى [الفيتامين] وهى مادّة الحياة ، والفيتامين المذكور يقوى فى الفواكه والخضر ، ويقلّ فى غيرها ، ويشتدّ ظهوره فى البرتقال وما قاربه ، ويقلّ فى نحو الارز الذى فصل من قشره ، كما جرّبوا ذلك مع الفيران فى ألمانيا ، إذ رأوا ما أكلت الارز منها وهى فى الظلمة قد مرضت وهلكت ، وما أكلت البرتقال منها قويت وسمنت ، فعلموا أن البرتقال أخذ من مادّة الحياة المنبثة فى ضوء الشمس المنبعث منها عليه أكثر مما أخذ الارز ، لأن القشر الذى كان عليه هو الذى تلقى ضوء الشمس ، فلما فصل منه أصبح هو قليل القوّة والمتانة ، وأصبح آكله المقتصر عليه أضعف من آكل البرتقال ونحو البرتقال .

ثم قال : إذن هنا ضوء للشمس فيه قوّة الحياة ، وهذه القوّة منبعها الشمس ، وهذه القوّة تكثر وتقلّ بحسب القابليات ، فعلى مقدار القابليات تكون العطايا .

الله أكبر . جلّ الله : أليست هذه الحيوانات من حشرات وطيور ودابة وانسان قوابل لنور الفكر والعالم العلوى الملكى أشبه بشموس تنبعث منها الأنوار الفكرية . وهذه الأنوار الفكرية تكون فى الانسان

أكثر من الحيوان ، وتختلف الأنوار الفكرية باختلاف القوابل الحيوانية ، إذن الأنوار الفكرية لاتزال تنبعث من عوالم نورية تسمى بلسان الشرائع ملائكة ، وبلسان الحكمة عقولا ونفوسا ، اختلفت الأسماء ولكن المسمى أصبح معلوما لكم بطريق القياس ، لأننا نكلمكم على قدر عقولكم أيها الناس ، فهناك عوالم روحية نورية عقلية نسبتها إلى عقولكم وعقول حشراتكم ودوابكم كنسبة أجرام هذه الشموس والكواكب إلى أحجام أجسامكم ، واذا كان للنور المحسوس أجرام عظيمة هي منابعه ، هكذا للنور المعقول منابع هي أصوله ، إذن المحسوسات جعلت أمثلة للمعقولات ، وهل أدار الله الشمس حول أرضكم وأجراها جريا متتابعا بحساب إلا لتدرسوها ، ومن أجل دراستها أن تتفكروا وتقولوا هاهي ذه أنواع النبات كل اختلفت قوة الحياة فيها قدرا ومنفعة ، حتى ان قشور الفاكهة والحبوب قد كمنت فيها قوة الحياة المستمدة من ضوء الشمس أكثر مما كمن فيما وراء تلك القشور من لب الثمار ولب الحبوب البعيدة عن ضوء الشمس ، فالآكل تلك القشور ينال من قوة الحياة أكثر مما ينال آكل ماتحت تلك القشور .

ثم تقولون : واذا كان ذلك كذلك في عالم الحس فليكن هذا عالم الروح ، وأن النفوس لاتأخذ من العوالم الروحية إلا على مقدار ما استعدت له ، فاذا رأينا انسانا وحشرات وطيورا ودواب ، فهذه لم تختلف في ادراكها إلا باختلاف قابليتها لما يرد عليها من العوالم الروحية التي تحيط بالشموس و بالثوابت و بالسيارات ، واذا كان المسلمون اليوم في أنحاء الأرض أقل علما من غيرهم في الأمم فما ذلك إلا لأنهم قد أصبحوا أشبه بما تحت قشور الحبوب والثمار والفواكه ، لأن الخرافات قد أحاطت بعقولهم ، وأضلهم بعض شيوخهم ، فمنعوهم العلم ، ومنحوهم مواعيد عرقوبية ، وأفهموهم أن حظوظ الحياة وحظوظ الممات ليس مدارها على العمل ، واتكلوا على المغفرة المجانية ، ونسي كثير منهم أنفسهم وغرائزهم وعقولهم ، فلم يصل لهم من تلك العقول العالية إلا قليل كما لم يصل لما تحت قشور الحبوب إلا قليل ، فقلت مادة الحياة في الدقيق الناعم في نحو البر وكثرت في النخالة وفيما يسمى (بالسن) وهوالذي يتركه الناس فلا يأكلونه ، وقد يطعمونه البهائم جهلا منهم ، وهوالذي فيه قوة الحياة والمنفعة .

إن نور الفكر منتشر انتشار ضوء الشمس ، نور مشرق على جميع هذه الكرة الأرضية كما ينتشر نور الشمس وجميع كواكب السماء ، لامكان في الأرض ، ولافي الجو إلا وهو مشبع بأنوار لاحصر لها ، أنتم يابني آدم لاتكادون تفهمون من الأنوار العلوية في أرضكم إلا نور الشمس والقمر ، مع أنكم في الحقيقة تشرق عليكم أنوار كثيرة جدا لاحصر لها ، فكل كوكب كشف أولم يكشف يسطع نوره الآن على الأرض وتصل منه آثار إلى أجسامكم كما تصل آثار من الشمس والقمر ، وتلك الآثار لها عمل فيها . إذن هنا أنوار كثيرة لاحصر لها تسطع على أجسامكم ، وأنتم لاترونها ، واذا كان ذلك محققا فعلا في نور محسوس فان الأنوار العقلية المشرقة العلوية الروحية تحيط بكم ولاحصر لها من مشرقات عليا وهي عوالم الملائكة ونفوسكم تتقبل منها كما تتقبل أجسامكم أنوار الشموس والكواكب والأقمار .

فلتتعرضوا لتلك الأنوار الروحية أيها المسلمون وان كانت خافية نظيرها في الخفاء أضواء الكواكب البعيدة مع أنها محققة ، ولن يتم ذلكم لكم إلا بنبذ الخرافات ودرس نفس هذا الوجود ونفس القرآن وليس يغني والله ماقرأتم في كتب أسلافكم الذين درسوا مايناسب زمانهم ولم يتوسعوا في العوالم العلوية والسفلية توسع أهل زمانكم وان كانوا لم يقصروا في ذلك ولمحوا تلميحا إلى ماظهر في هذا الزمان ، إذن ههنا أمران اثنان لاثالث لهما : نور محسوس ، ونور معقول ، والمعقول أصل المحسوس ، هذا جسمك بجوهري تشرق عليه الشمس و يشرق عليه نور الفكر ، يشاركك في ذلك كل انسان وحيوان ، بل النبات له حظ من الادراك ،

وهذه العوالم كلها فى المجموعة الشمسية ، والمجرّة العامّة والمجرّات كلها جسم واحد متجاذب فلافضاء إذن ، وهذا الجسم المتجاذب له قوى متعدّدة مختلفة ، خلقه الله وبثّ فيه أنوار الكواكب وأنوار العقول العالية ، فهو الخالق لتلك العقول العالية ولتلك الشموس الكبيرة ، ولا تعجب أن تكون أنت الساعة لك اتصال بعوالم علوية مشرقة وأخرى تزجى الفكر ، وأنت وكل حيوان ونبات تستمدّون من النورين وتسعدون بالاشراقين . الله عزّ وجل لاترونه لأنكم الآن فى حال التربية ، وهذه العوالم هى الغطاء ، فالعوالم الحسية غطاء حسىّ ، والعوالم الروحية غطاء روحىّ ، هما غطاءان لو كشفا لرأيتم الله ، ولكنهما لن يكشفا رحمة بكم واحسانا ولطفا ، لو أن الله كشف هذه الحجب ورفع الغطاء عن أعينكم الباطنية لهلكتم ولذبتم ، ولكنه لرحمته العظيمة خلق لكم شموسا ظاهرة وشموسا أجل منها باطنة ، وهى العوالم الروحية وقال لهما تعاونا فى تربية كل انسان وكل حيوان فتعاونت أضواء الشموس مع أضواء العقول على تربية العالمين .

حيرتي وفراقى لتلك الروح الجميلة

والكلام على الهواء والضياء والقوى الفكرية فى الرئة وفى الغذاء وفى المخ

هنالك وصل القطار الى محطة المرج ، ومدّة جريه نصف ساعة من الزمان ، فأفقت من غشيتى ، ورجعت إلى حسى ، وغاب عنى حالا ذلك الروح الذى تمثل لى بشرا سويا ، فساورتنى حيرة ، واعترانى همّ ، ذلك أن ما تخيلته وأنا فى القطار له قيمة علمية ، ولكن المقصود من تفسير الآية لم أصل إليه بعد ، لأنى أريد أن أفهم لماذا يذكر الله تعالى « النشأة الأخرى » بعد ذكر الزوجين الذكر والأنثى ؟ وما المناسبة بين الذكر والأنثى وبين النشأة الأخرى ؟ ثم لماذا نسمع الله يقول فى [سورة الأنعام] « كتب ربكم على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة » ولاجرم أن جعنا يوم القيامة يكون بالنشأة الأخرى ، فهل كون الانسان ذكرا وأنثى هو الرحمة التى جعلها الله مقدمة لتلك النشأة ؟ أم ماذا يكون ؟ فاذا رأينا الرحمة جعلت فى مقابلة ذكر الزوجين وجعل ما بعد كل منهما هو النشأة الأخرى ، فاذن علينا أن نفهم هل فى الذكورة والأنوثة مبادئ للنشأة الأخرى ، هذا هو الذى حار فيه فكرى ، هنالك نزلت من القطار ، ولكنى لم أمش فى طريقى من المرج إلى مزرعتنا كما جرت عادتى لأننى اعتدت كما ذكرت فى هذا التفسير مرارا أنى أنزل من القطار وأمشى نحو ساعة حتى أصل الى الأرض وهكذا فى الرجوع طلبا لرياضة البدن ، وفرحا بنعمة العلم ، واستنشاقا للهواء النقىّ ، فانه اذا كانت أجسامنا لابدّ لها من غذاء وأهمه الفيتامين أى مادّة الحياة الكامنة فى الخضر والفاكهة والحبوب ولاسيما فى قشورها ، واذا كانت عقولنا لابدّ لها من أنوار فكرية تصل لها اذا خلت من الشواغل الحسية والمعنوية ، وهذه الأنوار الفكرية يحصل عليها كل حيوان بحسب استعداده ، وكل انسان بحسب قابليته ، هكذا الرئة لابدّ لها من هواء يدخل بالشهيق ويخرج بالزفير ، وقد ظهر اليوم أن الانسان اذا استنشق بالشهيق مقدارا كبيرا وهو فى الخلاء وعند شواطئ البحار ، وأخذ إداك يدخل النفس بلطف ويحبسه قليلا ثم يخرجه بالتدريج بلطف يدخله فى نحو ٦ ثوان أو ٧ مثلا ويبقيه فى مدة كذلك ثم يخرجه فى نحو هذه المدة بالتدريج ، ثم يبقيه خارجا كذلك . يفعل ذلك آنا فآنا حتى بتعوّده ، ثم يزيد فى الزمن على مقدار الطاقة ادخالا واخراجا ، وحبسا للنفس داخلا وحبسا له خارجا ، فأنا هكذا كنت أفعل أثناء المشى كل مرة وأنا مع ذلك أدرس هذه الطبيعة الجميلة البهجة ذات الجمال .

أقول : فى هذا اليوم لم أمش بل ركبت مع عائلتى سيارة وسرنا إلى أن وصلنا الأرض (مزرعتنا) عند كمر الباشا من أرض بركة الحج .

منظر الأرض وتفسير الآيات فى مزارع الحقول

أخذنا نجوس خلال الأرض ، وجلنا فيها جولات ، وجلسنا هناك إلى قرب صلاة العصر ، فكان منظر الحقل جيلا أىّ جمال ، حقل أمامه الجبل شرقا ووراءه المزارع الخضرة والنخيل وأنواع الحبوب والحشائش المختلفات غربا ، وقد هبت النسمات فتذكرت الأثر الوارد : « اذا هبت الأرواح ، وفاءت الأفياء ، فاذكروا الله فانها ساعة الأوّابين » .

مناظر الأشجار المحيطة بالحقل فيها النخيل الكثير ، وهناك الاثل : أى العبل والطيور مغرّدات والحشرات مغنيات ، وأنواع الشعير والقمح والبرسيم والفول وهى متمايلات طربا وبهجة ، تهتزّ اهتزاز الولهين ، وتمشى مشية العروس بهجة للناظرين : والريح تعبث بالسنابل وتلعب بجريد النخل وأغصان الأشجار تقلبها ذات اليمين وذات الشمال .

ولهذه الأنواع أصوات موسيقية ، ورنات غنائية ، وهى موسيقى حقيقية لاخيالية [ولكنّ أكثر الناس لايعلمون] . وللحشائش من النغمات ماليس للأشجار والنخيل والأعناب ، العوالم كلها فى طرب وبهجة وحبور ، ولكن هذا الانسان هو الذى حيل بينه وبين ذلك الطرب والحبور للجهل الفاشى فى نوع الانسان . هذه هى الخواطر التى خطرت لى أثناء جولانى فى وسط الحقول .

حضور الروح الخيالى فى الحقل معى وتفسيره لآية : وأن عليه النشأة الأخرى

وبينما أنا غارق فى هذه الأفكار فى الحقل إذ حضر الخيال الروحى الذى كان معى فى القطار . فقال : ان ماذكرناه معك فى القطار يجعل العقل الانسانى كأنه ناظر إلى ربه ، إن الأمر أصبح واضحا ، انسان عاقل تحيط به أنوار ، ويداخله فكر ، هو فى أنوار عقلية وأنوار حسية ، هى مرسلات له من الله ولكنه لايزال فى حال التربية ، وهو ران حجب بذلك عن أن يرى الله فانه اذا صفت بصيرته يرى أنه هو جزء من هذه العوالم التى أرسلها له الله ، وهذه العوالم جميلة جمالا حسيا وجمالا معنويا ، ألاترى إلى جمال الحقول واختلاف الصور والنغمات ، ألاترى الى جمال العقول واختلاف إدراك العصفور والزنبور والنحلة وادراك الانسان ، تلك مناظر ذات جمال وبهاء وسناء ، فلئن اختلف شجر النخل وشجر العنب والرمان وأنواع الفول والقمح والشعير من حيث أشكالها ، ومن حيث نغمات الهواء المتخللة أوراقها وأغصانها فلتختلفنّ آراء الانسان والحيوان من حشرات ودواب وطيور ، اختلفت الأحجام والأصوات والادراكات ولكن الأخيرة هى الباقية أما الأصوات وأما الأجرام فهنّ كلهنّ ذاهبات وعالم الفكر هو الذى إليه تشدّ الرحال ، وبه يسعد الرجال .

وبينما أنا كذلك إذ لاحت منى التفاتة إلى نخلتين فى الحقل إحداهما ذكر والأخرى أنثى ، فأردت أن أقتلع [الكفرّى] (١) أى وعاء الطلع من النخلة ، فمنعتنى السلاء التى يحملها قحف الجريد المحيط بذلك الطلع ، هنالك تذكرت ما مرّ فى هذا التفسير من أن تلك الشوكات الطالعات بجانب أوراق شجر النخل لم تخلق إلا للمحافظة على تلك الورقات لضعفهنّ ضعفا كثيرا ، فهذه الشوكات تساعدها حتى تتحمل العواصف وتقلب الهواء فى الأجواء والأوقات المختلفات ؛ ولذلك نرى ورق النخل مع ضعفه يعيش جنبا لجنب مع خوص النخل القوىّ المتين ، وخوص النخل لايعوزه مايقوّيه ، أما ورق النخل فهو ضئيل ضعيف ، أما ههنا فى النخلة فان هذا الشوك المنتظم على جانبى القحف لم يجعل إلا للمحافظة على الطلع فى ذكر النخل ، وعلى حلق التمر

(١) بضم الكاف والفاء وتشديد الراء .

وتربيته فى أثناه ، إذن هـذا الشوك اعترضنى حتى لا أمدّ يدى فأتناول الـكفرى من هذه النخلة التى أنتجته لأنى أستعمله فيما لم يخلق له ، خالق هذا الطلع ليلقح ثمر النخلة قريبة أو بعيدة ، وفى حقلنا نخلة تقرب منه لذلك جعل الله هذه السلاء (جمع سلاءة) لتمنع الأيدى العابثة فلا تمتدّ إليها ، هذا الخاطر ورد إلىّ أثناء هذه المحاولة فجاء غلام صغير فى الحقل ، وقال : إن هذا يشوّكك فابتعد عنه وأنا أنتزعه لك ، فتقدّم لينزع [الـكفرّى] فلم يقدر وقال : انى ان انتزعته انـكسر ، ونحن نريد أن نعطيه لك سالما ، فبقول هذا الغلام تمّ الدرس الذى كنت أفـكر فيه ، فجاء رجل من نفس الحقل ، وقال : لايمكن قطعه إلا بسكين حادّة ، فقلت فى نفسى الآن حصحص الحق ، أعنى أن هـذا الطلع لايأخـذه إلا من له به عناية ، ولاعناية إلا بمنفعة ، والمنفعة هنا الالقاح ، والالقاح كثيرا ما يكون بيد الانسان ، فيأخذ الطلع من الذكور الى الاناث ، وهذه العناية النافعة يتخذ الانسان لها عدّة ، وهى آلة حديدية حادّة ، بها يقطع ذلك المطلوب .

هنالك قلت لايتسع الوقت للبقاء وأشـكرك ، وأما الساعة أريد الرجوع إلى المنزل بالقاهرة ، هنالك خاطبنى الروح قائلا : أنسيت الدرس الذى كنا ندرسه فى القطار ، ان له لصلة بهذا الموضوع الذى هو التفسير لهذه الآيات . فقلت : وكيف ذلك ؟ فقال : ان النخلات الذكور والاناث متصلات بنور الشمس الذى شرحناه قريبا ، فههنا شمس وههنا نخل ، ولولا النظام الدقيق فى حساب الشمس ما أثمر النخل ، هذا أوان فصل الربيع قد بقيت له أيام قليلة ، ولاجرم أن الشمس فى هذا الفصل تأخذ فى الاقتراب من بلادكم ، وبها تزدهر الأشجار والزروع ، وتـكون الثمرات ، وتزاوج الحيوان ، وظهور الأنوار ، والجمال والحسن ، والعشق والغرام وههنا ذكر ، وههنا أنثى ، وههنا سلاء شائـكة حارسات لهؤلاء الذكور وهؤلاء الاناث ، الشمس بقربها أرسلت نورا . وذلك النور له آثار بفعل الله فى نماء النبات قربا وبعدا ، وفى انتاجه أنواع الثمرات ، وهذه الشمس لولا حسابها الدقيق لم يكن شجر ولا ثمر ، لأن النماء لابدّ أن يكون بنظام ، وهذا النظام لابدّ أن يسبقه نظام فى حساب سير الشمس ، ولولم تـكن الشمس جارية بحساب لم ترَ عينك اليوم هـذا الطلع فى النخلة الصغيرة التى أمامك الآن ، ولوأن الشمس قربت وبعدت بغير نظام لم يكن شىء من هذا ، بل لم تـكن أنت موجودا فى هذه الأرض ، ويقال لك : يا أهل يثرب لامقام لـكم فارجعوا ، فترجعون إلى عالم الأموات إذن بين هـذا الطلع وبين نفس الشمس وبين حساب سيرها مناسبة تامّة ، واذا صحّ ذلك بالنسبة لنور الشمس فليصح نظيره فى مسألة ظهور السلاء على قحوف الجريد : جمع قحف كحمل ، فهل هذه السلاء بارزات بهذه الدقة ولهذه العناية والمنفعة والمحافظة على تلك الثمرات وطلعها من تلقاء نفسها ؟ فاذا كان بروز الثمرات من تلقاء نفسها ولم يكن بأسباب الضوء الجارى من الشمس بنظام وحساب فليكن هكذا بروز السلاء الشائـكة على قحوف الجريد بغير علة ، بل نظام بلامنظم ، ولـكن الأمر ليس كذلك ، إن الثمر فى ظواهر حاله تابع لمؤثر ظاهرى ، وهو ضوء الشمس قربا وبعدا بحساب ، ولـكن ضوء الشمس لايعقل ولايفهم أن هذا الطلع الضعيف يعوزه سلاء تحافظ عليه فتمنعنى أنا من أخذ الطلع ، إذن هناك تلك الأرواح اللاتى ضربت لها الشموس مثلا فى الوجود ، وهنّ مرسلات أنوارا حكمية على كل بقعة ، فان كانت فى الانسان فهى عقـل ، أوفى الحيوان فهى المسميات غرائز ، وان كانت فى النخلة ، أوفى أجسام الانسان والحيوان كان ذلك تنظيما واحكاما بحيث يعطى كل ذى حق حقه .

فهذه السلاء أيها الجوهرى التى أمامك نظمت بنور حكمى استمدّ من أرواح عاليـة كما استمدّت هـذه النخلة أنوارا من الشمس قربا وبعدا ، وكما كان الحساب فى سير الشمس ظاهر الأثر فى ظهور الطلع فى إبانه هكذا كان الحساب فى تلك الأرواح العالية ظاهرا أثره فى إبداع تلك الشوكات المحيطات بثمر هذه النخلات .

أيها

أيها الجوهرى : هذه الحكمة التى وضحت الآن تفسر هذه الآية تفسيرا جيلا لم يسبق له فى كتب المسلمين نظير .

انظر أيها الجوهرى : انظر ، انظر فى جسمك ، ألست الآن فى آخر العقد السابع من حياتك ، انظر ألست ترى الرأس مشتعلة بالمشيب ، ألست ترى هذا الجسم قد أدبر شبابه وأقبل هرمه ؟ قلت بلى . قال : ماذا يقول هذا الجسم بلسان حاله ؟ السلاء فى النخلة هاأنذا أسمعتك قولها ، فهاك أسمعك أقوال جسمك الذى أدبر شبابه وقوته ، وأقبلت أيام هرمه وضعفه . يقول جسمك اليوم وجسم كل انسى على شاكلتك : أنا لباس روحك ، تلك الروح التى تحيط بها أنوار حسية وأنوار عقلية ، تشرق عليها من عوالم الجمال والكمال ، كنت فتى وشابا وكهلا ، كل ذلك لتنمو روحك فى هذه الحياة وتجرّب هذه الدنيا وتدرسها ، ولكن هذه الحال مقدّمات ، والمقدّمات لها نتائج ، فاذا أنا ضعفت اليوم فهذا الضعف مقدّمة للزوال ، ومتى زلت عنك كشفت روحك هذا الوجود . فقلت للروح الذى تخيلته : أنا إلى الآن لم أفهم المراد ، ولم أعرف سرّ الآية ؟ فأقول أنا أوضح ذلك :

ايضاح تفسير الآية بمسالة الذكور والاناث

هنالك أخذ الروح يسألنى : هل ترى أن الذكورة والانوثة واستقلالهما ضرورىّ فى الحيوان والنبات ؟ قلت لا . قال ولم ؟ قلت : لأن من النبات مايتوالد بغير ذكر كما نرى من الأغصان التى نأخذها من شجرات ونزرعها فتكون شجرات كأمهاتها ، وذلك كثير فى الأشجار وهكذا :

[المحار] : من أنواع الحيوان ، ان المحارة الواحدة تلد الالوف بهيئة بيض ، وهذا البيض يبقى فيها أمدا حتى يفقس ومتى فقس عاش حولها فى البحار ، وتربى وهو صغير بهيئة الذرّ كأنه مادّة تلوّن الماء (هذا المقام واضح فى سورة مريم فاقرأه هناك) فهذه المحارة فيها الذكورة والانوثة معا ، فلاعشق ولاغرام ولاهجر ولافراق . بل هناك ولادة بغير هذه التكاليف كلها ، فلاطلاق ولاخلع ولانفقة ولاعدّة ولا أحكام شرعية ، ولاحقوق لزوجة ، ولاحقوق لرجل ، بل كل هذا استغنى عنه المحار ، إذن هذا كله لاضرورة له فى خلق الحيوان . فقال : إذن ما الحكمة فى هذه التكاليف والغرام والهيام ، والوصل والفراق ؟ فقلت : أنا لاأعلمها . فقال : أنا بذلك عليم . اعلم أن كل ماهو حولكم ومايحيط بكم دورس لكم ، ولاجرم أن مافى نفوسكم أقرب إليكم مما حولكم ، ومع كونه أقرب إليكم مما حولكم ترونه أبعد عنكم ، فانكم لاتفقهون نفوسكم إلا بعد دراسة ماحولكم لتشابه العالمين ، درسنا معك السلاء والطلع ، وعرفنا أن هناك أسبابا ونتائج هكذا الأسباب هنا لها نتائج ، وذلك أن العشق والغرام والجمال والحسن ، كل ذلك جعل مقدّمات لما بعده من حصول الزوجة أوّلا والولد ثانيا ، فهناك جمال يتبعه شوق له فزواج ووصال ، وهناك قد تحصل نتيجتان : أولاهما هناء الحياة بقدر الامكان بين الزوجين ، ثانيتهما انتاج الذرّية ، إذن جمال أجسامكم فى حال الشباب له نتيجتان : احداهما قاصرة على الزوجين وهى هناء الحياة ، وثانيتهما متعدية وهى انتاج الذرّية الباقية بعد موت الأبوان ، إذن انفصال الذكر عن الأنثى فى الانسان الذى بهما الكلام فيه ، وحصول الهجر والوصل ، والأحوال المختلفة ، والمسرّات والأحزان ، كل ذلك مقدّمات لنتائج والنتائج هى تعاون الزوجين فى أمور الحياة وانتاج الذرّية الباقية بعد الممات ؟ اذا صحّ ذلك فى ذكورة الانسان وأنوثته فانما ذلك جعل مقدّمة لما نحن فيه الآن .

النفوس الانسانية فى شوقها للعلوم أشبه بالشبان فى شوقهم إلى الشابات

إن هذه الأجسام الحاملة لأجسامكم اليوم تقوم بأود الروح وتحملها وتحفظها الى يوم الموت وهى فى أيام الشباب غارقة فى مهمات الحياة ، ولكنها اذا أقبلت أيام المشيب تفتح لبعض العقول أبواب الفكر والبحث ، وتشتاق شوقا على مقدار همتها إلى الاطلاع على هذه العوالم ، وكلما ارتقت فى العلم ازدادت ولوعا ، ولاتزال فى ازدياد حتى تعانى مايعانيه الشبان من الهجر والفراق ، وخير أيام الفكر أيام كبرالسن ، فتذكرت ماقاله الدكتور [شاهين باشا] رئيس الأطباء فى مصر اليوم فى خطبة خطبها فى العام السابق (سنة ١٩٣١ م) إذ قال : « إن الدم يتحوّل إلى المخ فى زمن الشيخوخة ، فلينتهز تلك الفرصة الشيوخ ، وليفكروا فى تلك السن » . أقول : ولكن ليس معنى هذا أن كل الشيوخ يقدرون على ذلك ، فان كثيرا من الشيوخ ضعفت قواهم العقلية فى زمن الشباب بالانهماك فى اللذات ، فجاءوا الى زمن الشيخوخة وهم مقلون فلايفكرون ، بل يرجعون كالأطفال .

ثم قال الروح : إن هذه العوالم المحيطة بكم غذاء لأرواحكم ، وكما أن من يجلس ليلا وهوفارغ من الهمّ يحسّ بسعادة فى منظرالنجوم وجمالها هكذا أرواحكم المحبوسة الآن اذا خلت من هذه الأجسام ورجعت الى عوالم الأرواح تحسّ بسعادة لاحدّ لها ، وليس المثل كالممثل له بل هوبجرّد تنظير والا فأرواحكم تصبح اذا فارقت الجسد وعندها استعداد لعالم الجمال سعيدة سعادة مطلقة مغمورة بالجمال ، إذن انقسام الناس إلى ذكور واناث فيكون شوق وتوق وهجر ووصال ، كل ذلك ممهدلما هوأعلى ، فأنتم فى أيام حياتكم تستاقون إلى المعرفة والعلم ، والمعرفة والعلم فى الحقيقة غذاء لأرواحكم ! تلك الأرواح المستعدّة للبقاء ، وهى تغتذى بتلك المعارف التى هى زادها وتفيد الأرواح التى هى أقلّ منها هناك علما ومعرفة ، فاذن هناك فوائدقاصرة على الروح ، وفوائد متعدية ، فهى بالعلوم تستلذ وتغتذى ، وهى بها تفيد غيرها علما ومعرفة كما يفعل ذلك الزوجان ، فهما بعد الشوق بداعى الجمال والهجر يتصلان فيكون هناك سعادة زوجية بينهما ، وذرية هما يسعدان بتربيتها ، وهكذا تسعد الأرواح بعد الموت بالاطلاع على هذه العوالم الجميلة فتتغذى بها كما تتغذى الأجسام اليوم بالحبوب والثمار وتفيد أرواحا صغيرة فوائد تكون سعادة لها أيضا كما سعدت بتربية الذرّية وأحست بلذة فى هذه الحياة ، إذن ظهرالسرّ لك الآن أيهاالجوهرى ، وبان لك واتضح أن الجمال والعشق التابع له ، والهجر والفراق وما ماثله ، كل ذلك مقدمات لماهوأهمّ وهوأن المحارة التى لم يتميزفيها الذكر من الأنثى ليست أهلا للمعارف التى ستنالها أرواحكم بعدالموت ، فلم تعذب فى الحياة الدنيا بالهجر والخلع والطلاق والفراق ، بل جلت وولدت بلا كلفة من هذا النوع لأنه تعذيب لانتيجة له ، أما التعذيب فى الانسانية فان له ثمرة ، لأنه يعلم النفس ماهوالجمال ، وماهوالحب ، وماهى السعادة مع الاخوان ، وماهى السعادة فى منح العبرهبات وعطايا كالذرّية . حتى اذا ارتقت النفس واشتاقت للعلوم والمعارف وأغرمت بها ، هنالك تبحث وتجدّ ، وكلما كبرت وعرفت الحقائق اشتاقت حنت وأنت وبكت واشتكت ، حتى اذا فارقت هذا البدن المانع لها من عالمها حصل لها الهناء والفوز بحصول المطلوب والعزّ المرغوب ، فتصبح مغمورة فى جوّ من الجمال والحكمة والنور لايدركها أحد فى هذه الحياة ، وهنالك يفهم المسلمون لماذا يقول الله فى القرآن : « فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون إنى وجهت وجهى للذى فطرالسموات والأرض حنيفا » وذلك لأن الله لابدّ أن يكون حاضرا بعلمه وقدرته والشمس تقرب وتبعد وتشرق وتأفل بدليل أن بعدهاأورث البرد فى داركم ، وقربها أورث بروزطلع النخل فى حقلكم

ولكن الله ليس كذلك ، ألا ترى أن السلاء الطالعة فى قحف الجريد المذكور آنفا ، وها هوذا أمامك معتنى به ليلا ونهارا ، فان نموّ كل نام لا يقف ليلا ولا نهارا ، أى ان النموّ مستمرّ واحكامه وتدبيره وتقديره مستمرّ ليلا ونهارا ، وهذا من عالم روحى « يسبحون الليل والنهار لا يفترون » فعوالم الأرواح لا تنام كما ينام الانسان ولا تغيب كما تغيب الشمس ، وعالم الأرواح أقرب إلى الحضرة العلية من عالم الحس فلذلك اعتنت بهذه السلاء فى ظهور الشمس وفى أفولها ، إذن عالم الأرواح أقرب إلى ربه (المنزّه عن كل مخلوق ، المتعالى عن كل مربوب) من عالم الأجسام ، وكل محسوس فلقربه منه وكثرة استمداده منه دام اقباله ولم يغب كما تغيب الشمس ، ولو غابت تلك القوى الحافظة للعالم لحظة لهلك كله ، ولتصدّعت هذه السلاء طبعا ، فاذا كانت القوى الروحية المحيطة بكم مشرقة لا تغيب فكيف بالله عزّ وجل ! فهو إذن أكثر منها ظهورا بما لا حدّ له ، فاذا ارتقت نفوسكم فانها يوما ما ستعرف ربها ، وهذا سرّ الحديث الوارد فى انكم سترون ربكم كما ترون الشمس ليس دونها سحاب ، وفى رواية أخرى : جاء ذكر القمر على حسب اختلاف مراتب الناس من علماء بهذه العجائب ، ومن عباد محجوبة أفكارهم فلا يدركون من كمال الله إلا قليلا كما يدرك الناس من أنوار الشمس على ما انعكس منها على القمر ثم أشرق على الأرض .

هذا هو السرّ أيها الجوهرى فى قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة اذا تمنى ، وأن عليه النشأة الأخرى » فى الذكورة والانوثة تمهيد للشوق والغرام والعشق الخاصلات لكثير من الشبان والشيوخ فى هذه الدنيا ، وهى نفوس مصطفاة لا يخلو منها زمان ولا مكان ، يعيشون فى أرضكم وفيهم هذا الشوق ، واذا ماتوا تنعموا بنعيم العالم الروحى ، بل كثيرا ما يحسون فى هذه الحياة كأنهم غرقوا فى بحر لجىّ من جمال الأرواح ، وكأن ربهم يخاطبهم ، وكأنهم يرونه وان كانوا لا يرونه فعلا لضعف مراتبهم وللحوائل الكثيرة ، وهذه النفوس هى المنعشات للأمم جيلا فجيلا وآنا فآنا ، وهذه النفوس تقول فى هذه الحياة : لو كشف عنى الغطاء ما ازددت يقينا . فالنشأة الأخرى التى مقدّمتها الموت لها مقدمة وهو عشق العلوم ، وعشق العلوم له مقدمة وهى بهجة المناظر ومحاسنها التى تعرم بها بعض النفوس .

فاذا كانت آية الأنعام جاء فيها أن الرجعة أعقبها أن الله يجمعنا ليوم القيامة ، ففى [سورة النجم] كانت الرجعة المودعة فى انقسام الناس إلى ذكور واناث متبوعة بالنشأة الأخرى ، لأن الذكورة والانوثة مرّنت النفوس على الغرام فالوصال إلى آخر ما تقدم ، فهكذا هنا غرام وحب ثم هجر و بعد ، ثم خلوص النفس بالموت فتصل إلى السعادة الأبدية . هذا هو السرّ الذى يمكن أن ألقيه إليك الآن لتنشره فى نوع الانسان ، وكم فى القرآن من أسرار : « وفوق كل ذى علم عليم » .

كل ذلك وأنا واقف أمام شجرة النخل اذا قائل يقول لى : لقد أزف الوقت لأن موعد صاحب السيارة أن يوافينا الساعة الرابعة ، ولم يبق إلا دقائق ، فاستعددت للرجوع ، وأخذت أهلى ووصلنا إلى المكان الذى أمكن السيارة أن تقف فيه ، فتأخر ذلك السائق مدة ، وكنا لم نعطه أجرا حتى يكون ذلك حاملا له على الرجوع إلينا ، ثم حضر ، وما وصل إلينا حتى قال : أنا أعلم أنى قد أخطأت ، ولكن لتكن المعفرة . فقلت لا بأس ، ثم ركبنا السيارة ورجعنا إلى محطة المرج ، وسار بنا القطار إلى محطة القاهرة ثم المنزل ، وذلك يوم الأحد ١٥ مارس سنة ١٩٣٢ م والى هنا تمّ الكلام على [سورة النجم] والحمد لله رب العالمين .